فى حالة التوحيد اليهودى الذى اخترته هنا. ويبدو لقواى النقدية أن هذا المبحث، وقد بدأ من دراسة موسى الإنسان، كما لو كان راقصا يقف متوازنا على إصبع واحد، وإذا لم يكن بوسعى أن أجد التأييد فى التفسير التحليلى لأسطورة التعرض للماء وأعبر منها إلى اقتراح سيلين المتعلق بنهاية موسى، فإن المبحث كله كان من الواجب أن يظل دون كتابة. ومع ذلك دعونى أبدأ.

إننى أبدأ بأن أستخلص نتائج مقالى الثانى عن موسى، وهى نتائج تاريخية محضة. ولن أفحصها فحصا نقدياً طالما أنها مقدمات للمناقشات السيكولوجية التى تقوم عليها والتى تحيل إليها باستمرار.

✠ ✠ ✠

القســـم الأول

-١-

المقدمات التاريخية

إن الخلفية التاريخية للأحداث التى أثارت اهتمامنا هى كالتالى : صارت مصر من خلال فتوحات الأسرة الثامنة عشرة إمبراطورية عالمية. وانعكست الإمبريالية الجديدة فى تطور بعض الأفكار الدينية، فإن لم يكن التطور فى أفكار الشعب كله، فعلى الأقل فى أفكار الطبقة العليا الحاكمة والفعّالة ثقافياً. وتحت تأثير كهنة إله الشمس فى أتون (هليوبوليس)، والذى ربما قوّته أفكار مصدرها آسيا، قامت هناك فكرة **إله عالمى** -الإله أتون – ولم تعد الفكرة مقصورة على شعب واحد وبلد واحد. واعتلى الفرعون الشاب أمنحوتب الرابع العرش (الذى غيّر اسمه فيما بعد إلى أخناتون) ولم يولِ شيئا عناية أكبر من عنايته بتطوير فكرة هذا الإله، ورفع من شأن ديانة أتون فأصبحت الديانة الرسمية، وبذلك صار الإله العالمى هو **الإله الوحيد**، ووصف كل ما كان يقال عن الآلهة الأخرى بأنه غش وخداع، وقاوم بصلابه هائلة كل مغريات الفكر السحرى ونبذ الوهم الأثير بصفة خاصة للمصريين – نبذ هذا الوهم والفكر الذى يقول بحياة بعد الموت، وكشف بتنبؤ رائع عن المعرفة العالمية اللاحقة فى طاقة الإشعاع الشمسى كمصدر لكل حياة على الأرض، وعَبَدَ الشمس كرمز لقوة هذا الإله الذى آمن به، وتمّجد بفرحته بالخَلْق وفى حياته فى الماعت (الحقيقة والعدل).

وكانت تلك الحالة هى الحالة الأولى فى التاريخ البشرى، وربما كانت الأنقى، للديانة التوحيدية. وإن المعرفة المتعمقة للظروف التاريخية والسيكولوجية لنشأتها لمعرفة لها قيمتها التى لاتقدر. ولقد اتخذت الاحتياطات ألا تصلنا معلومات كثيرة عن ديانة أتون، وكان كل شئ قد دُمِّر فى حكم خلفاء أخناتون الضعاف، وصبَّ الكهنة الذين اضطهدهم غضبهم عليه فى الآثار التى تُذكِّر به. وقُضىَ على ديانة أتون، وأُزيلت عاصمة الفرعون الكافر ونُهبت، وانتهى أمر الأسرة الثامنة عشرة سنة ١٣٥٠ ق.م. وبعد فترة سادتها الفوضى أعاد القائد حور محب النظام وحكم حتى سنة ١٣١٥ ق.م، وبدت إصلاحات أخناتون كما لو كانت حادثاً مصيره إلى النسيان.

هذا هو ماتقرر تاريخياً، وعند هذه النقطة يبدأ العمل فى الرأى الذى نراه، وربما كان هناك رجل بين خلصاء أخناتون يدعى تحوتمس Thothmes كما كان يدعى الكثيرون فى ذلك الوقت[1] ولايهم الاسم ولكن الجزء الثانى من اسمه لابد كان «موسى Mose»، وكان يشغل منصباً كبيرا، وكان من المؤمنين المقتنعين بديانه أتون، ولكنه كان على نقيض الملك المتأمل، كان ذا قوة وعاطفة متدفقة، وكان موت أخناتون والقضاء على ديانته يعنى بالنسبة لهذا الرجل نهاية كل آماله. ولم يكن يستطيع أن يبقى فى مصر إلامنفياً أو أن يرجع عن دينه وينكره. وإذا كان حاكما لإقليم من أقاليم الحدود فمن المرجح أنه اتصل بقبيلة سامية معينة كانت قد هاجرت منذ بضعة أجيال، وتحوَّل فى يأسه وفى وحدته إلى أولئك الأغراب وبحث فيهم عن تعويض لما كان قد فقده، واختارهم ليكونوا شعبه، وحاول أن يحقق من خلالهم مُثُله، وبعد أن غادر مصر معهم، يصحبه أتباعه الملاصقون، باركهم بختانهم ومنحهم الشرائع وبشَّرهم بديانة أتون التى كان قد نبذها المصريون تواً. وربما كانت الشرائع التى أخذ بها موسى يهوُدَه كانت أقسى من الشرائع التى استنَّها سيده ومعلمه أخناتون، وربما كان قد ألغى كذلك الارتباط بإله الشمس فى أون، الذى كانت ديانة أخناتون ماتزال من المؤمنين به.

ويجب أن نحدد زمن الخروج من مصر بأنه جرى خلال الفترة التى وقعت بين حكم

١- كان هذا الاسم كذلك مثلا هو اسم المثال الذى اكتُشف مرسمه فى تل العمارنة. (فرويد)

أخناتون وحكم من وَلِيَ العرش بعده سنة ١٣٥٠ ق.م. وتغمُض بصفة خاصة الفترات الزمنية التالية حتى امتلاك أرض كنعان. ومن الظلام الذى تركه نصّ التوراة هنا - أو الذى خلقه بالأحرى - بوسع البحث التاريخى لعصرنا أن يميز واقعتين، الأولى اكتشفها إرنست سيلين ومؤداها أن اليهود الذين وصفتهم التوراة نفسها بأنهم كانوا عنيدين لايطيعون مشرّعهم وزعيمهم، وتمردوا عليه آخر الأمر وقتلوه وطرحوا عنهم ديانة أتون التى فرضها عليهم كما فعل المصريون من قبلهم؛ والواقعة الثانية دلّل عليها إدوارد ميير ومؤداها أن هؤلاء اليهود عند رجوعهم من مصر اتحدوا بقبائل كانت لهم بها تقريبا صلات نسب، فى المنطقة الواقعة على حدود فلسطين وشبه جزيرة سيناء وشبه الجزيرة العربية. وأنهم هناك، فى بقعة خصبة اسمها قادش وتحت تأثير قبائل مِدْيَن العربية، اعتنقوا ديانة جديدة هى عبادة إله البراكين يهوه، وبعد ذلك مباشرة كانوا مستعدين أن يفتحوا أرض كنعان.

ولاتتأكد العلاقة فى الزمن بين هذين الحدَثين إلى بعضهما البعض وإلى الخروج. وتأتى الإشارة التاريخية التالية فى لوح مرنبتاح الذى حكم مصر حتى سنة ١٢١٥ ق.م. والذى يعدّد إسرائيل على رأس المهزومين فى غزواته التى قام بها فى سوريا وفلسطين. وإذا أخذنا تاريخ هذا اللوح كحد أقصى، فإنه يتبقى على كل مجرى الأحداث، ابتداء من الخروج، نحو قرن - بعد سنة ١٣٥٠ حتى ماقبل الأحداث سنة ١٢١٥. ومن المحتمل كذلك أن اسم إسرائيل اسم لايشير إلى القبائل التى نتابع هنا مصيرها، وأننا فى الواقع نملك فترة أطول تحت تصرفنا. واستقرار الشعب اليهودى المتأخر فى كنعان لم يتحقق بالتأكيد بسرعة، بل كان بالأحرى سلسلة من النضال المتتابع، ولابد أنه امتد على مدى فترة طويلة نوعا ما. وإذا نبذنا التحديد الذى فرضه لوح مرنبتاح فإن لنا أن نفترض بسرعة مرور ثلاثين سنة، أى انقضاء جيل، هو الوقت الذى استغرقته بعثة موسى[1]، ومرور جيلين على الأقل، ومن المحتمل أكثر، حتى تحقق الاتحاد فى قادش[2]. ولايحتاج الأمر إلى أن تكون الفترة التى تخللت الاتحاد فى قادش والارتحال إلى كنعان فترة طويلة. والتراث اليهودى

١- يتفق هذا القول بأن التيه فى الصحراء استغرق أربعين سنة كما تقول التوراة. (فرويد)

٢- أى مابين نحو ١٣٥٠ و١٣٤٠ إلى ١٣٢٠ و١٣١٠ لبعثة موسى، و١٢٦٠ أو ربما بعد ذلك بقليل للاتحاد مع قادش، أما لوح مرنبتاح فزمنه قبل سنة ١٢١٥. (فرويد)

أسبابه القوية - كما أوضحت ذلك فى مقالى السابق - فى تقصير الفترة التى تخللت الخروج وتأسيس ديانة فى قادش، ولكن بحثنا يميل بنا إلى أن نؤيد الرأى المغاير لذلك.

ولقد انصبّ اهتمامنا حتى الآن على النواحى الخارجية للقصة، وعلى محاولة لملء فراغات معرفتنا التاريخية - فى جزء منها إعادة لمقالى الثانى. ويتابع اهتمامنا مصير موسى وعقائده التى وضع لها اليهود نهاية ظاهريا فقط، ومن الرواية التى تدور حول يهوه - والتى كُتبت نحو سنة ١٠٠٠ ق.م ولو أنها من غير شك تأسست على مادة يقع تاريخها قبل ذلك - عرفنا أن **الاتحاد بين القبائل وتأسيس ديانة قادش كان يمثل التقاء، مايزال من الممكن تمييز الجزئين اللذين يكونانه بسهولة.** وكان اهتمام أحد الشريكين منصبا فقط على إنكار حداثة وأجنبية الإله يهوه وإذكاء دعواه بأحقيته فى ولاء الشعب له - أما الشريك الآخر فيرفض أن ينبذ الذكريات العزيزة عليه والأثيرة عنده، عن التحرر من مصر، وعن الصورة الرائعة لزعيمه موسى. والواقع أنه نجح فى العثور على مكان للواقعة والإنسان موسى فى الصورة الجديدة للتاريخ اليهودى المبكر، وفى الاستبقاء على الأقل للعلامة الخارجية للديانة الموسوية - **نعنى الختان** - وفى الإصرار على قيود معينة فى استخدام الاسم الإلهى الجديد. وقلتُ إن الشعب الذى أصرّ على تلك المطالب هو من نسل أتباع موسى اللاويين الذين كانت تفصلهم عدة أجيال قليلة فقط عن معاصرى ومواطنى موسى الحقيقيين، والذين كانوا متعلقين بذكراه عن طريق تراث مايزال أخضر. وتشبه الروايات المنسوجة نسجاً شعرياً والتى تنسب إلى **الإله** يهوه وإلى منافسه اللاحق **الإله** «إيل» - تشبه شواهد المقابر، وينبغى، كما تراءى لى، أن تُوَسد أسفلها فى راحة أبدية الحقائق عن هذه الأمور المبكرة وعن طبيعة الديانة الموسوية وعن الاستبعاد العنيف للرجل العظيم - حقائق استُخلصت من المعرفة التى للأجيال اللاحقة. فإذا كنا قد رأينا مجرى الأحداث على النحو الصحيح فلن يكون فيها شئ غامض، ومن الجائز جداً أن تكون هى النهاية المحددة لقصة موسى فى تاريخ الشعب اليهودى.

والشئ الرائع فيها هو أن هذا هو الذى لم يحدث، وأن الآثار الأكثر أهمية للتجربة ظهرت بعد ذلك بكثير، وأنها فى خلال قرون عديدة شقّت طريقها إلى التعبير. ومن غير المحتمل أن يهوه كان مختلفاً اختلافاً شديداً فى الشخصية عن آلهة الشعوب والقبائل

المجاورة. لقد تصارع مع الآلهة الأخرى، هذا حقيقى، مثلما تحاربت القبائل فيما بينها، ومع ذلك فلنا أن نتصور أن الإنسان الذى يعبد يهوه فى ذلك العصر ماكان يحلم إطلاقاً أن يشك فى وجود آلهة كنعان ومواب وعماليق إلخ، أو فى وجود الشعوب التى تؤمن بها. ولقد حُجبَت مرة أخرى الفكرة التوحيدية التى توهجت فى عصر أخناتون، وكان عليها أن تبقى فى الظلام لمدة طويلة بعد ذلك، وعلى جزيرة فيلة القريبة من الشلال الأول على النيل أثمرت الكشوف معلومة مدهشة تقول إن مستعمرة عسكرية يهودية أقيمت هناك منذ قرون مضت، وعبدت فى معابدها بالإضافة إلى إلهها الرئيسى ياهو، معبودتان مؤنثتان، كانت إحداهما تسمى «عنات – ياهو Anat - Jahu». والواقع أن هؤلاء اليهود قد انفصلوا عن بلدهم الأم، وأنهم لم يمروا خلال نفس التطور الدينى. وأوصلت لهم الحكومة الفارسية (فى القرن الخامس قبل الميلاد) تنظيمات الطقوس الجديدة فى أورشليم[1]. ولو عدنا للعصور الأولى نستطيع أن نقول بجزم أن **يهوه لم يكن أبداً يشبه إله موسى، فقد كان أتون مسالماً مثل رسوله الذى بشر به على الأرض – أو مثل نموذجه الأرضى بمعنى أصح – الفرعون أخناتون، الذى كان ينظر بذراعين متعانقين** بينما الإمبراطورية التى فاز بها أسلافه تتهاوى إلى قطع. **وبالنسبة لشعب كان يعد نفسه لغزو أراض جديدة بالعنف كان يهوه يتلاءم معهم أكثر. علاوة على ذلك إن ماكان جديراً بالشرف فى إله موسى كان يتجاوز إدراك شعب بدائى**[2].

ولقد سبق أن ذكرت – وفى ذلك تؤيدنى آراء آخرين – أن **الحقيقة المركزية لتطور الديانة اليهودية كانت : أن يهوه فقد سماته الشخصية على مر الزمن وصار أكثر فأكثر مثل أتون إله موسى القديم.** وبقيت الاختلافات، هذا حقيقى، وهى اختلافات تبدو للوهلة الأولى، ومع ذلك فتفسيرها سهل، فلقد بدأ حكمه فى مصر فى فترة آمنة سعيدة. وحتى والإمبراطورية قد بدأت تهتز من أساسها، استطاع أتباعه أن يتحولوا عن المسائل الدنيوية وأن يواصلوا امتداح ماخلقه والاستمتاع به. أما الشعب اليهودى فقد قيض له القدر سلسلة من الامتحانات القاسية والتجارب المؤلمة، ومن

١- Auerbach : Wuste und gelobtes Land, Bd. II (1936). (فرويد)

٢- من رأى فرويد أن ديانة أخناتون التوحيدية تتجاوز فهم اليهود البدائيين. (الحفنى)

ثم صار إلهه إلهاً صلباً قاسياً متدثرا بالكآبة كما كان فى الواقع. واستبقى صفة الإله العالمى الذى يحكم كل الأراضى والشعوب، ولكن حقيقة أن عبادته انتقلت من المصريين إلى اليهود وجدت التعبير عنها فى المذهب الذى أضيف إلى الديانة اليهودية، والذى يقول إن اليهود كانوا شعبه المختار، وأن التزاماتهم الخاصة ستجد فى النهاية ثوابها الخاص. وربما لم يكن من السهل عليهم أن يوفقوا بين اعتقادهم تفضيل الإله القدير لهم على سائر العالمين وبين التجارب المريرة لمصيرهم المحزن. ولكنهم لم يدعوا الشكوك تهاجمهم، وزادوا أحاسيسهم بالذنب ليسكتوا إحساسهم بعدم الثقة، وربما انتهوا إلى أن يشيروا إلى «إرادة الإله التى لايدرك كنهها أحد» كما يفعل المتدينون حتى اليوم. وإذا كان هناك عجب فى سماحة هذا الإله لمجئ المزيد من الطغاة الجدد الذين اضطهدوا وأساءوا إلى شعبه - الأشوريون والبابليون والفرس - فإن قوته مع ذلك تمثلت فى قهره لكل هؤلاء الأعداء الأشرار، كلٌ بدوره، وتدمير إمبراطورياتهم.

وتشابه الإله اليهودى فى صورته المحدّثة مع إله موسى القديم فى ثلاث نقاط هامة : النقطة الأولى والحاسمة هى الإقرار به إلهاً واحداً لاإله إلا هو، والوحدانية التى قال بها أخناتون آمن بها كل الشعب إيماناً صادقاً، والواقع أن هذا الشعب التصق بهذه الوحدانية لدرجة أنها صارت المحتوى الأساسى لحياتهم الثقافية وحلّت محل جميع الاهتمامات الأخرى وأجمع الشعب وكهنته، وكانوا قد أصبحوا الجزء المهيمن على أمره، إجماعاً على تلك النقطة، ولكن الكهنة فى قصر نشاطهم على استكمال طقوس عبادته، وجدوا أنفسهم فى تعارض مع اتجاهات قوية داخل الشعب تحاول أن تحيى عقيدتين أخريين من عقائد موسى عن إلهه. وارتفع صوت أنبياء إسرائيل يدعو بلا كلل إلى أن الإله يأنف من الطقوس وتقديم الأضاحى، وأنه لايطلب شيئا سوى الإيمان به وبالحياة فى الحقيقة والعدل. وعندما أثنوا على بساطة وقداسة حياتهم فى الصحراء كانوا بالتأكيد تحت تأثير المُثُل التى بشّر بها موسى.

والآن حان الوقت لطرح السؤال عما إذا كانت هناك أية حاجة إطلاقا لأن نستبعد أثر موسى على الشكل النهائى لفكرة اليهود عن إلههم، وعمّا إذا لم يكن يكفى أن نفترض تطوراً تلقائياً إلى روحانية أعلى خلال حياة ثقافية تمتد على مدى قرون كثيرة. وإنى لأود أن أبدى تعليقين، على هذا التفسير المحتمل الذى يمكن أن يضع نهاية لكل مانخمنه. الأول

أنه لايفسر أى شئ، فالظروف نفسها لم تؤد بالشعب اليونانى إلى اعتناق الوحدانية، مع أنه كان بالتأكيد شعباً أكثر موهبة، ولكن موهبته لم تؤد به إلا إلى تحطيم ديانة تعدد الآلهة وإلى بداية التفكير الفلسفى. وأما فى مصر فقد ازدهر التوحيد إلى الحد الذى نفهم به الازدهار - كنتيجة ثانوية للإمبريالية، وكان الإله هو انعكاس لصورة فرعون الذى يحكم الإمبراطورية العالمية الكبيرة حكماً استبداديا. **أما بالنسبة لليهود فلم تكن الظروف السياسية مواتيه أبدا لتطور يبعد بهم عن فكرة إله قومى يحتكرونه لأنفسهم إلى فكرة حاكم عام للعالم.** ومن ثم فإن السؤال عن أصل التوحيد بين اليهود سيظل بلاجواب، أو أن علينا أن نرضى بالإجابة الجارية التى تقول بأن **التوحيد كان تعبيراً عن عبقريتهم الدينية الخاصة.** ونحن نعلم أن العبقرية شئ غير مفهوم وغير مسئول، ولذلك لاينبغى أن نلجأ اليها كتفسير إلاّ بعد أن يفشل كل حل آخر[1].

وعلاوة على ذلك هناك حقيقة أن السجلات والتاريخ اليهودى نفسه تبين لنا الطريق بأن تقرر تقريرا جازماً - دون التعارض مع بعضها البعض هذه المرة - بأن **موسى هو الذى أعطى الشعب فكرة الإله الواحد.** فإذا كان هناك مايُعترض به على صحة هذا التقرير، فهو أن الأحبار عندما أعادوا كتابة نص التوراة إلى الصورة التى نعرفها بها الآن، قد نسبوا الكثير جدا إلى موسى. وقيل عن التشريعات وأحكام الطقوس التى تخص بلاشك العصور اللاحقة أنها قوانين موسوية، والهدف من ذلك واضح، وهو الإعلاء من سلطتها. ولاريب أن هذا سبب يثير الشك، ولكنه شك لايرقى إلى درجة أن نلجأ إليه لاستخدامه، لأن الدافع الأعمق لمثل هذه المبالغة واضح كضوء النهار. وأراد الأحبار فى الروايات التى قدموها أن ينشئوا جسراً يصل بين عصورهم التى عاشوا فيها وبين العصر الذى وُجد فيه موسى. وحاولوا أن ينكروا بما بدأنا نسلم أنه أبرز سمات التاريخ الدينى اليهودى : ألا وهو وجود شُقّة بين تنزيل الشريعة الموسوية وبين الديانة اليهودية اللاحقة - شقة مُلئت فى أول الأمر باللجوء إلى عبادة يهوه، ولم يَسْعَ أحد لتغطيتها إلافيما بعد وببطء، وتنكر الروايات التى قدموها هذا التسلل للأحداث بكل ماتملك من قوة، مع أن صلتها التاريخية شئ لايرقى إليه أى شك طالما أن نص التوراة **(رغم التغييرات التى اعتورته على مر الزمن)**[2] يستبقي بأكثر مما يكفى العديد من البراهين التى تدلل

١- ينطبق نفس الشئ على الحالة المشهورة لوليام شكسبير (الشاعر الإنجليزى) الذى وُلد فى ستراتفورد. (فرويد) ويقصد فرويد أنه لاتعليل لعبقرية شكسبير (الحفنى).

٢- يقر فرويد مرة أخرى بحدوث تغييرات فى التوراة، ومع ذلك فهو يتخذه دليلا على جدية موضوعه. (الحفنى).

عليها. وكان لنسخة الأحبار هدف يشبه هدف الاتجاه الذى جعل الإله الجديد يهوه هو إله الآباء. فإذا أخذنا فى الاعتبار هذا الدافع الذى كان للتشريع الكهنوتى، فمن الصعب ألا نعتقد بأن موسى كان حقيقة مانح شعبه اليهودى الفكرة التوحيدية. وسوف نجد أنه من الأسهل أن نوافق على ذلك طالما أن فى وسعنا أن نقول من أين أتت الفكرة إلى موسى - وهو شئ لابد أن الأحبار اليهود كانوا قد نسوه.

وهنا قد يسأل بعضهم، ماالذى نجنيه من نسبة التوحيد اليهودى إلى المصريين، وإننا بذلك لا نفلح إلا فى الرجوع بالمشكلة خطوة إلى الوراء، ولأننا بذلك لانعود نعلم شيئاً عن أصل التوحيد. والإجابة على هذا السؤال هى أن المسألة ليست مسألة مانجنيه، ولكنها مسألة تتعلق بالبحث، وربما تعلمنا شيئاً ونحن نوضح العملية الحقيقية.

✠ ✠ ✠

-٢-

فترة الكمون والتراث

وهكذا أعتقد أن فكرة الإله الواحد، وكذلك الإبراز للمطالب الأخلاقية باسم ذلك الإله، ونبذ كل الطقوس السحرية، كان فعلاً من العقيدة الموسوية، ولكنها لم تلق فى أول الأمر استجابة، إلا أنها لاقت تلك الاستجابة بعد زمن طويل، وأخيراً عُقدت لها السيادة. فكيف يمكن تفسير هذه النتيجة التى جاءت متأخرة، وأين نلتقى بمظاهر مشابهة؟.

وتقول لنا نظريتنا التالية أن هذه المظاهر نصادفها كثيراً فى مجالات مختلفة جداً، وأنها تحدث من الجائز بطرق مختلفة سهلة الفهم بشكل أو بآخر. ولنأخذ كمثال مصير أية نظرية علمية جديدة، مثلاً نظرية الارتقاء لدارون[1]، فلقد قوبلت فى أول الأمر بالرفض المعادى، وظلوا يناقشونها فى عنف لبضع سنوات، واستغرقت مع ذلك جيلاً واحداً قبل أن يسلموا بها كخطوة كبيرة نحو الحقيقة. ومُنح «دارون» نفسه شرف الدفن فى «وستمنستر أبى»[2]. ولايوجد لغز فى حالة كهذه. لقد أيقظت الحقيقة الجديدة مقاومات لها أثرها.

١- العالم الطبيعى البريطانى الذى قال بالتطور والارتقاء، وقد لاقت نظريته اضطهادا وتنكيلا لها من الكنيسة، لأنها كانت تخالف نظرية الخلق فى التوراة. (الحفنى)

٢- المكان الذى يدفن فيه عظماء بريطانيا. (الحفنى)

وكان فى الإمكان مساندة هذه المقاومات بحجج تعارض الشواهد المؤيدة للنظرية المزعجة. وظل صراع الآراء لفترة من الوقت. ومن البداية الأولى كان هناك المؤمنون بها والمعارضون لها، ولكن عدد المؤمنين وأهميتهم كان يزيد ثباتاً حتى صارت لهم الغلبة أخيراً. وطوال وقت الصراع لم ينس أحد القضية قيد البحث. ولايدهشنا أن نجد أن العملية كلها استغرقت وقتاً طويلا، ومن المحتمل أننا لانستسيغ بالمثل حقيقة أننا هنا مع ظاهرة من ظواهر علم النفس الجماعى. ولاتوجد صعوبة فى العثور على تشابه كامل بينها وبين الحياة النفسيه للفرد. وفى مثل هذه الحالة نسمع عن شئ جديد، يُطلب منا استنادا إلى الشواهد المقدمة أن نقبله كحقيقة، ومع ذلك فإنه يتعارض مع الكثير من أمانينا ويُغضب بعضا من معتقداتنا التى نعتز بها كثيراً. ولسوف نتردد حينئذ، ونبحث عن حجج نثير بها الشك حول المادة الجديدة، ونناضل لذلك لفترة حتى نسلم بهذا الشئ أخيراً ونقول «مع ذلك فهذا حقيقى، ولو أننا نجد صعوبة فى تقبله، ومن المؤلم أن نضطر إلى الإيمان به». وكل مانعلمه من هذه العملية هو أنها تحتاج إلى الوقت كى يتغلب العمل الفكرى للأنا على الاعتراضات التى تبديها المشاعر القوية. ومع ذلك فهذه الحالة ليست مشابهة تماما للحالة التى نحن بصدد توضيحها.

ويبدو المثل التالى الذى نضربه أقل ارتباطاً بالمشكلة التى نعالجها، فقد يحدث أن يخرج شخص ما، وكأنه لم يُؤذ ظاهريا من مكان عانى فيه حادثا كأن يكون تصادم قطار. وفى خلال الأسابيع التالية مع ذلك تتطور لديه سلسلة من الأعراض النفسية والحركية والتى لايمكن أن ترجع إلا إلى صدمته أو لأى شئ آخر حدث فى وقت وقوع الحادث. لقد أُصيب «بعصاب أنوّى»[1]. ويبدو ذلك غير مفهوم بالمرة، ومن ثم فهو حقيقة جديدة، ويسمى الوقت الذى انقضى بين وقوع الحادث وأول ظهور الأعراض «فترة الحضانة»، تشبهاً بشكل خفيف بما يحدث فى علم الأمراض المعدية. ونلاحظ بالمراجعة الثانية - وبالرغم من الاختلاف الأساسى بين الحالتين، حالة العصاب الأنوى وقضية التوحيد اليهودى - أن هناك تشابهاً فى نقطة واحدة هى السمة التى يمكن أن نطلق عليها اصطلاح «الكمون»،

١- هو عصاب نفسى تحركه صدمة عاطفية كما هو الحال فى الهستيريا وفى بعض أنواع الخوف من موضوع من الموضوعات أو موقف من المواقف. ويسمى بالانجليزية Traumtic وكلمة Trauma تعنى الأذى أو الجرح أو الصدمة وهى فى كثير من الأحيان جسمية بنيوية ولكنها يمكن أن تكون نفسية فى شكل صدمة عاطفية تنتج اضطرابا فى الوظائف العقلية. (الحفنى)

فهناك من الأسباب أقواها للاعتقاد بأنه فى تاريخ الديانة اليهودية كانت هناك فترة طويلة، بعد قطع اليهود لصلتهم بالديانة الموسوية، لايوجد بها أى أثر لفكرة التوحيد والنهى عن الطقوس والتأكيد على الجانب الأخلاقى. وهكذا يصبح لدينا الاستعداد لاحتمال ألاّ يكون البحث عن حل لمشكلتنا إلافى موقف سيكولوجى معين.

ولقد تتبعت لأكثر من مرة الأحداث فى «قادش» عندما اجتمع الجزءان اللذان كوّنا الشعب اليهودى اللاحق، وكانا سبباً فى قبوله الديانة الجديدة. وكانت ذكرى الخروج وصورة موسى ماتزال قوية واضحة لدى اليهود الذين كانوا فى مصر، حتى أنهم أصروا على أن يُدمجا فى أية رواية لتاريخهم المبكر. وربما كان بينهم أحفاد لأناس عرفوا هم أنفسهم موسى، وربما كان مايزال بعضهم يحس بنفسه مصرياً، وكانوا يحملون أسماء مصرية. ومع ذلك كانت لهم أسبابهم الوجيهة «لكبت» ذكرى المصير الذى وقع لزعيمهم ومشرّعهم. بينما كان الدافع الرئيسى لدى الجزء الآخر المكوِّن للقبيلة هو تمجيد الإله الجديد وإنكار أجنبيته. واهتم كلا الجزئين اهتماماً متساوياً بإنكار أنه كانت توجد ديانة مبكرة، وبإنكار ماكانت تحتويه بنوع خاص. وكانت هذه هى الطريقة التى جرى بها التلاقى الأول الذى ربما سرعان ماقُنن بالكتابة، فلقد استحضر الشعب القادم من مصر معه فن الكتابة وغرام كتابة التاريخ. ومع ذلك فقد كان لابد من مرور وقت طويل قبل أن يطور المؤرخون الحقيقة الموضوعية كهدف أمثل. ولقد شكلوا فى أول الأمر رواياتهم طبقا لحاجاتهم وميولهم التى كانت اللحظة تفرضها، بضمير مستريح، كما لو كانوا لم يفهموا بعد معنى التزييف. وكنتيجة لذلك بدأ الاختلاف يتطور بين النسخة المكتوبة والرواية الشفاهية - أى التراث - لنفس الموضوع. وما طمس أو غُيِّر فى النسخة المكتوبة كان من الممكن جداً أن يُحفظ دون إتلاف فى التراث، والتراث هو المكمل وفى نفس الوقت النقيض للتاريخ المكتوب، وكان أقل عرضه للتأثيرات المشوهة - وربما كان فى جزء منه متحرراً منها كلية - ولذلك ربما يكون أصدق من الرواية المكتوبة. ومع ذلك فقد فسد صدقه لغموضه وسيولته أكثر من النص المكتوب، لتعرضه لتغيرات وتشويهات كثيرة بانتقاله من جيل إلى الجيل التالى بالشفاهة[1]. وقد تكون لمثل هذا التراث نتائج مختلفة. ولعل أكثر الاحتمالات حدوثاً له هو إمكان طغيان النسخة المكتوبة عليه وطردها له بحيث

١- يعود فرويد إلى تأكيد دور التغييرات فى التراث اليهودى وهو ما أكده القرآن فى أكثر من آية من آياته، ومع ذلك يعتمد فرويد على هذا العامل دائم التغير فى استخلاص نتائجه. وهذه التغييرات الدائمة هى التى طمست معالم اليهودية واستوجبت قيام المسيحية ثم الإسلام أخيراً لينسخ الديانتين بسبب طمس الأحبار لمعالم الدين الحق فيهما. (الحفنى)

ينزوى تدريجياً إلى الظل ويُنسى آخر الأمر. ومن الجائز أن يلقى مصيراً آخر وهو أن يتحول هو نفسه فى آخر الأمر إلى أن يكون نسخة مكتوبة. وهناك احتمالات أخرى ستُذكر فيما بعد.

وقد تجد ظاهرة **فترة الكمون** فى تاريخ الدين اليهودى تفسيراً لها فى الآتى : أن الوقائع التى حاول مايسمى بالتاريخ الرسمى المكتوب كبتها عن قصد لم تَضعْ أبداً فى الواقع، وعاشت المعرفة بها فى الروايات التى حُفظت حيّة بين الشعب. وطبقا لإرنست سيلين كانت توجد مع ذلك رواية تتعلق بنهاية موسى وتعارض معارضة تامة الرواية الرسمية وكانت أقرب إلى الحقيقة. ونفس الشئ، كما نفترض، حدث مع المعتقدات الأخرى التى لاقت نهايتها فى الظاهر فى نفس الوقت الذى لاقى فيه موسى ومبادئ الديانة الموسوية – التى لم تقبلها أغلبية معاصرى موسى – نهايتهما.

وهنا نلتقى بواقعة بارزة، وهى أن هذه الروايات، بدلاً من أن تضعف بمرور الوقت، ازدادت قوة على مر القرون وشقّت طريقها إلي تشريعات الروايات الرسمية اللاحقة، وأخيراً دللت على قوتها بشكل حاسم بحيث أثّرت فى فكر ونشاط الشعب. ويبدو أن الظروف التى جعلت هذا التطور ممكناً أبعد عن أن تكون واضحة.

وهذه الواقعه غريبة فى الحقيقة، لدرجة أننا نحس أن لنا مايبررنا عندما نفحصها من جديد. وفيها تكمن مشكلتنا، **فالشعب اليهودى قد ترك ديانة أتون التى أعطاها لهم موسى، وتحوّل إلى عبادة إله آخر يختلف قليلا عن بعليم[1] القبائل الأخرى. وفشلت كل جهود التأثيرات المشوهة اللاحقة فى إخفاء هذه الحقيقة المهينة. ومع ذلك فإن ديانة موسى لم تختف دون أن تترك أثرا**، فلقد عاش نوع من ذكراها، نوع من التراث حُجِبَ وشُوِّه. وكان هذا التراث لماض عظيم هو الذى استمر فى العمل فى الخلفية، حتى حصل أكثر فأكثر على المزيد من السيطرة على عقل الشعب، ونجح أخيراً فى تحويل الإله يهوا إلى أن يكون إله موسى، وبعث الديانة التى أقامها موسى من قرون والتى تخلوا عنها فيما بعد، وأعطاها حياة جديدة. وليس بالتصور المعتاد أن يكون لتراث كامن مثل هذا الأثر القوى على الحياة الروحية لشعب. وهناك نجد أنفسنا فى مجال علم النفس الجماعى، وفيه لانحس أننا فى

١– بعليم Baalim، أو بعل : إسم أطلق على عدة آلهة سامية أشهرها المعبود الفينيقى الذى يراد به الشمس أو المشترى، وانتشرت عبادته فى إسرائيل حتى قاومها الأنبياء وخاصة إشعيا وإرميا. ومن كلمة بعل اشتق معنى الزوج أو السيد كما تقول رب الأسرة. (الحفنى)

بيتنا. وينبغى أن نبحث حولنا عن تشبيهات وعن حقائق لها طبيعة مشابهة حتى فى المجالات الأخرى. وأنا متأكد أنى سوف أجدها.

وعندما كان الزمن ينضج لعودة ديانة موسى، كان الشعب اليونانى يمتلك كنزاً غنياً بشكل غير عادى من الخرافات وأساطير الأبطال. ومن المعتقد أن القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد رأى خلق ملاحم هومر[١] التى استمدت مادتها من نسيج الأساطير. وبمعرفتنا السيكولوجية المعاصرة كان بوسعنا من زمن قبل شليمان وإيفانز (مؤرخيْن) أن نسأل : من أين حصل الإغريق على كل هذه المادة من الأساطير والخرافات التى أحالها هومر وكبار الدراميين فى «أتيكا»[٢] إلى أعمال فنية خالدة؟ ولابد أن تكون الإجابة : من المحتمل أن هذا الشعب قد مرّ فى تاريخه المبكر بمرحلة من العظمة والثقافة المتطورة جدا، والتى انتهت بكارثة - كما يقول التاريخ فى الواقع - وعاش من هذه المرحلة تراث ضئيل نجا من هذه الكارثة. وأكد البحث الأثرى المعاصر هذه النظرية التى لو قيلت فى زمن مبكر لكانت بالتأكيد قد اعتبرت جريئة جدا. ولقد اكتشف البحث الأثرى شواهد الثقافة المينوية[٣] الميسينية[٤] العظيمة، والتى من المحتمل أنها كانت قد انتهت فى أرض اليونان نفسها سنة ١٢٥٠ ق.م، ولايكاد المؤرخون الإغريق فى الزمن اللاحق يشيرون إليها. وهناك مايشير إلى أن الكريتيين فى يوم من الأيام قد سيطروا على البحر، وهناك ذِكْر لاسم الملك مينوس Mi-nos ولقصره، وذِكْر لقصر التيه، ولكن هذا هو هو كل شئ. ولم يبق من ذلك الزمن العظيم إلا الروايات التى أمسك بخيوطها الكتّاب العظام.

وتمتلك شعوب أخرى ملحمات شعبية كهذه، مثل الهنود والفنلنديين[٥] والألمان. والأمر

١- الشاعر الملحمى الإغريقى الأشهر صاحب الإلياذة والأوديسه اللتين تعدان من عيون الأدب القديم فى العالم، واتخذهما كثير من النقاد نقاط بحث حول حقيقة نسبتهما إلى هومر أو هوميروس، وهو مايسمى فى الأدب باسم «المشكلة الهومرية»، وكان تاريخ ظهورها فى القرن السادس قبل الميلاد، وتدّعى كل مدن اليونان نسبة هومر إليها، وهناك من يشك فى نسبة الملحمتين إلى شخص واحد، فالمعروف أن الشعر الملحمى لايمكن أن يكون مبدعه شخصا واحداً رغم أن الملحمتين قد كتبتا بصيغة المتكلم الذى يقص عن مشاعره، ويكفى على التدليل على عظمة الكتابين أن أسخيلوس الكاتب والشاعر المسرحى العظيم يقول عن مسرحيته أنها ليست سوى نتفة من مائدة هومر الحافلة. (الحفنى)

٢- Attica : مقاطعة فى بلاد اليونان كانت عاصمتها أثينا، وامتاز أهلها بسلامة الذوق واللباقة واللطف. (الحفنى)

٣- الملك مينوس Minos ومنه صفة المينوية، ملك كريت وابن يوروبا وزيوس وزوج باسيفايا، وكان مشرعا وحكيما، وإلى زمانه تنسب المدينة التى عاصرت حرب طروادة. (الحفنى).

٤- نسبة إلى ميسينيا Mycenes من أرض اليونان وتشتهر بآثارها والفن الذى يعرف باسمها والذى نما وازدهر بازدهار العصر البطولى فى ميسينيا وطرواده. (الحفنى)

٥- سكان فنلنده وهى جمهورية فى غربى الاتحاد السوفيتى ظلت موضع نزاع بين روسيا والسويد، ولكنها حصلت على استقلالها سنة ١٩١٧ بعد اندلاع ثورة أكتوبر الاشتراكية السوفيتية سنة ١٩١٧. وتشتهر فنلنده بكثرة ملاحمها وقصصها الشعبى. (الحفنى).

متروك للمؤرخ الأدبى ليتحرى ماإذا كانت نفس الظروف التى كانت للإغريق تنطبق عليهم بالمثل. وإنى لأحسب أن تحرياً كهذا سيثمر نتيجة إيجابية. والظروف التى عيناها لنشأة الملاحم الشعبية هى كالآتى : توجد فترة من التاريخ المبكر تعتبر فيما بعد فترة زاخرة بالأحداث المباشرة ذات الأهمية والتى ربما كانت أحداثا عظيمة وبطولية دائما، ومع ذلك فهى حدثت من زمن بعيد جدا لدرجة أن الأجيال اللاحقة لاتتلقى العلم بها إلا على هيئة روايات غامضة وغير كاملة. وكان اختفاء الملحمة كشكل أدبى فى العصور اللاحقة مثاراً للدهشة، وقد يكون تفسير ذلك أن الظروف التى تنتج الملاحم لم تعد موجودة، فلقد استهلكت الموضوعات القديمة، وحلّ التاريخ محل التراث فيما يتعلق بالأحداث اللاحقة، ولم تعد فى وسع أشجع الأعمال بطولية فى عصرنا أن تُلهم ملحمة، وكان الإسكندر الأكبر محقاً فى شكواه التى تقول إنه ليس لديه شاعر مثل هومر يتحدث عن حياته ويُشْهرها.

ولقد كانت للعصور البعيدة نواحيها الجذابة جداً، وكانت أحياناً نواحٍ غامضة لدرجة تشحذ الخيال، وطالما أن البشرية غير راضية عن حاضرها - وهذا كثيراً مايحدث - فإنها تتنّصت على الماضى، وتأمل فى النهاية أن يتحصل لها الاعتقاد فى حقيقة الحلم الذى يراودها دائما بعصر ذهبى[1]. وربما كان الإنسان مايزال يقف تحت سحر طفولته، التى تقدمها إليه ذاكرة متحيزة لزمن حافل بالسعادة التى لم تَشُبْهَا شائبة. والذكريات غير الكاملة والمضبّبة للماضى، والتى نسميها تراثاً، هى دافع عظيم للفنان، لأنه يكون حراً فى ملء الفراغات فى الذكريات طبقاً لما تمليه عليه مخيلته، وأن يشكل طبقاً لما يقصد من هدف صورة الزمن الذى آل على نفسه إحياؤه[2]، وربما جاز لنا أن نقول تقريباً أنه كلما غمُض التراث وغلّفه الضباب كلما كان أصلح لاستخدام الشاعر، ولذلك فإن القيمة التى يضفيها التراث على الشعر لاينبغى أن تُدهشنا، وإن **التشبيه الذى وجدناه فى اعتماد الشعر الملحمى على ظروف محددة سيجعلنا أكثر ميلا إلى تقبل الفكرة الغريبة التى تقول إن تراث موسى هو الذى حول مع اليهود عبادة الإله يهوا فى اتجاه الديانة الموسوية القديمة، ومع ذلك فالقضيتان فى نواحٍ أخرى مختلفتان جداً، والنتيجة فى واحدة منهما هى الشعر، وفى**

١- يشكل موقف كهذا أساس كتاب "Lays of Ancient Rome by Macaulay" وهو هنا ينتحل دور المنشد الذى تحزنه الخلافات العنيفة التى تمزق الأحزاب السياسية لعصره، فيهجوها بالمقارنة بوحدة ووطنية أسلافهم. (فرويد)

٢- يعترف فرويد بأنه يصوغ التاريخ هنا صياغة الفنان والشاعر، وأنه لايقدم حقائق علمية وإنما وجهة نظر. (الحفنى)

الأخرى هى الديانة. ولقد افترضنا أن الأخيرة - تحت تأثير التراث - قد بُعثت بأمانة لايمكن أن يقاس عليها الشعر الملحمى بطبيعة الحال، ولذلك لايتبقى من مشكلتنا إلاّ مايكفى ليشجع على البحث عن قضايا تشبه قضيتنا شبهاً أكثر.

✠ ✠ ✠

-٣-

تشـــابـه

إن القضية الوحيدة التى نرضى حقا بتشبيهها بالعملية الرائعة التى تعرفنا عليها فى تاريخ الديانة اليهودية توجد فى مجال يبدو بعيداً عن المشكلة التى نعالجها. ومع ذلك فالتشابه بينهما تام جداً حتى ليقرب من التطابق[١].

وهنا مرة أخرى نجد ظاهرة الكمون[٢]، وظهور شواهد غير واضحة فى حاجة إلى تفسير، وشرطاً صارماً لتجربة مبكره، ومن ثم فهى منسية. وهنا أيضاً نجد صفة الجبر[٣] - التى تغلب على التفكير المنطقى - تشغل بقوة الحياة النفسية، وهى سمة لم تكن موجودة فى أصل تكوين الملحمة.

وهذه القضية المشابهة فى علم الأمراض النفسية : فى تكوين العصاب[٤] الإنسانى، أى فى النظام الذى ينتمى إلى علم النفس الفردى[٥]، بينما ينبغى النظر بالطبع إلى الظواهر الدينية على أنها جزء من علم النفس الجماعى[٦]، وسنرى أن هذا الشبه لايثير الدهشة كما يبدو لأول وهلة، بل إن له فى الواقع طبيعة البديهيات.

١- يتناول هذا الفصل العلاقة بين علم النفس والقضية التى يبحثها فرويد، قضية موسى والتوحيد، ويجعلها قضية من قضايا التطبيق لمنهج التحليل النفسى.

٢- الكمون Iatency فى أدب التحليل النفسى هو ظاهرة تراجع الحدث إلى منطقة شبه الشعور، أما فترة الكمون فهى فترة الطفولة الإنسانية الممتدة من سن أربع سنوات إلى سن خمس سنوات وإلى بداية المراهقة، وهى الفترة التى تفصل بين المرحلة الجنسية الطفلية والمرحلة الجنسية العادية. (الحفنى)

٣- الجبر هو نظرية فلسفية تقول إن كل ظواهر الحياة النفسية هى نتائج ضرورية لظروف الوجود المسبقة، والحتمية أو الجبر مقولة من مقولات العلم الوصفى وكذلك التحليل النفسى وخاصة نظرية الأحلام عند فرويد. (الحفنى)

٤- العصاب neorosis بالمعنى القديم هو النشاط الذى يمارسه الجهاز العصبى، وهو بالمعنى الحديث اضطراب وظيفى يصيب الجهاز العصبى، وهو يختلف عن العصاب النفسى psychoneurosis، ويعده المحللون النفسيون ظاهرة صراع يتضمن استبعاد دافع غريزى أساسى. ويتحدث المحللون النفسيون كذلك عن العصاب الحقيقى actual neorosis وهو العصاب الذى له أصل خلقى. (الحفنى)

٥- علم النفس الفردى individual psychology هو علم النفس الذىَ يتناول الاختلافات الفردية ويدرسها ويقيسها، أو هو بمعنى خاص هذا النوع من علم النفس التحليلى الذى وضع أساسه وطوره العالم المحلل النفسانى أدلر. (الحفنى)

٦- علم النفس الجماعى mass psychology أو group psychology وهو علم النفس الذى يدرس الجماعات الاجتماعية وسلوكها الجماعى، وهو علم يجمع بين علم النفس وعلم الاجتماع، ويتناول بالوصف والتجريب والتحليل سلوك الفرد مع الأشخاص الآخرين واستجابته لهم سواء كانوا مجتمعين أو متفرقين. (الحفنى)

والانفعالات التى عانيناها فى سن مبكرة ونسيناها فيما بعد، والتى نسبتُ أنا إليها هذه الأهمية الكبيرة لأسباب الأمراض العصابية، تسمى انطباعات أذوية[1]. وقد يبقى السؤال مفتوحاً إذا كان ينبغى النظر عموماً إلى أسباب الأمراض العصابية بوصفها أسباباً أذوية. والاعتراض الواضح هو أن التجارب الأذوية لاتبين دائما فى التاريخ المبكر للفرد العصابى. وكثيراً ماينبغى أن نقنع بأن نقول بأنه لايوجد شئ سوى رد فعل غير عادى للتجارب والمطالب التى يمكن أن تنطبق على كل الأفراد. وينفعل كثير من الناس تجاهها بطريقة أخرى قد نصطلح على تسميتها سوية. وحيث لايمكن أن نجد تفسيراً آخر سوى الميل الوراثى أو البنّى (من بنية)، يغرينا بالطبع أن نقول إن المرض العصابى لايظهر فجأة، ولكنه يتطور ببطء.

وتبرز بهذا الخصوص نقطتان، الأولى أن تكوين العصاب يعود دائماً إلى انفعالات مبكرة جداً لأيام الطفولة[2]. والنقطة الثانية هى : من الصواب القول بأن هناك حالات نستطيع أن ننحيها جانباً ونقول عنها أنها «أذوية»، لأن فى الإمكان إرجاع آثارها بلا خطأ إلى انفعال أو أكثر من الانفعالات القوية التى كانت لهذه المرحلة المبكرة، ولقد فشلت هذه الانفعالات عن أن تنصرف بشكل سوى، حتى لنحس بالميل إلى القول بأنه لو لم يحدث هذا الشئ أو ذاك لما كان هناك مرض عصابى. وحتى لو قصرنا التشبيه محل البحث على هذه الحالات الأذوية لكان هذا كافياً للغرض الذى نحن بصدده. ومع ذلك فالهوة بين المجموعتين لاتبدو وكأنها لايمكن وصلها. ومن الجائز جداً ربط كل من الظروف العلّية فى مفهوم واحد، وكل شئ يعتمد على ماهو الأنوى، فإذا جاز لنا أن نفترض أن التجربة لاتكتسب صفتها إلا طبقاً لعنصر كمّى - بمعنى أنه إذا كانت التجربة تثير ردود فعل مَرَضية غير عادية، فمصدر الخطأ هو أنها أكثرت من طلباتها على الفرد إكثاراً شديداً - فإنه يمكننا بالتالى

١- trauma هى الأذى أو الجرح أوالصدمة، وهى فى كثير من الأحيان جسمية أو بنيّة، ولكنها كذلك يمكن أن تكون نفسية فى شكل صدمة عاطفية تُنتج اضطرابا فى الوظائف الفعلية. والعصاب الأنوى traumatic neurosis هو عصاب نفسى تحركه صدمة عاطفية كما هو الحال فى الهستيريا وفى بعض أنواع الخوف المرضى من موضوع من الموضوعات أو موقف من المواقف. (الحفنى)

٢- ولهذا كان من السخف الإصرار على إمكان ممارسة التحليل النفسى مع استبعاد فترات الحياة المبكرة من نطاق بحوثنا؛ ومع ذلك فإن هذا الزعم قالت به دوائر كثيرة. (فرويد)

أن نستخلص هذه النتيجة : أن شيئاً مايمكن أن يتسبب فى الأذى لبنية ما بينما لايتسبب فى ذلك مع بنية أخرى. ومن ثم يبدو كما لو كان عندنا مقياس متغير، أو مايمكن تسميته سلسلة مكملة لبعضها البعض، حيث يتجه عنصران إلى تكملة الأسباب، فالنقص فى عنصر تعوضه الزيادة فى العنصر الآخر، ويعمل العنصران عموماً معاً، ولايسعنا أن نتحدث عن وجود دافع بسيط إلاعند كل طرف من طرفى السلسلة. وكنتيجة لهذا التفكير بوسعنا أن نهمل الاختلاف بين الأسباب الأنوية وغير الأنوية باعتبار أنها لاتهم التشبيه الذى نحن بصدده.

وبرغم أننا نخاطر بأن نكرر أنفسنا، فمن الجائز أن يكون من المفيد أن نجمع معاً الحقائق التى لها صلة بالتشبيه الهام موضوع البحث. وهى كالآتى : لقد أوضحت بحوثنا أن مانسميه بظواهر أو أعراض العصاب هى نتائج خبرات وانفعالات معينة، نُسلّم لهذا السبب نفسه بأنها أنويات لها مسبباتها. ونود أن نتيقن، ولو بمجرد طريقة إجمالية، من السمات المشتركة بين هذه الخبرات وبين الأعراض العصابية.

ولنناقش أولاً الخبرات، فكل هذه الظواهر الأنوية ظواهر تنتمى إلي مرحلة الطفولة، ونقصد الفترة حتى نحو سن الخامسة، ووُجد أن الانفعالات فى الوقت الذى يبدأ فيه الطفل فى التحدث لها أهميتها الخاصة. والفترة الواقعة بين عمر سنتين وعمر أربع سنوات هى أهم فترة. ولايسعنا أن نقرر بأى درجة من اليقين تبدأ هذه الحساسية للخبرات الأنوية منذ الولادة مباشرة.

وكقاعدةٍ تُنسى الخبرات موضوع البحث نسياناً تاماً وتظل بمنأى عن الذاكرة، وتنتمى إلى فترة الفقدان الطفولى للذاكرة التى كثيراً ماتتخللها ذكريات متقطعة معزولة، أو مايسمى «ذكريات حاجبة».

وتتعلق هذه الذكريات بانفعالات لها طبيعة جنسية – عدوانية، وتتعلق كذلك بالأذى الذى يحيق الذات مبكراً (الذى يحيق بالنرجسية)[1]. وينبغى أن نضيف أن الأطفال فى هذه

١– النرجسيةNarcissism : هى حب الذات حبا طاغيا، ويعتبرها المحللون النفسيون مرحلة مبكرة من مراحل التطور النفسى الجنسى، وفيها يكون موضوع الجنس هو الذات، وتمثل نكوصا عند هذا الضرب من البشر المسمى بالنمط النرجسى أو أنها تؤكده. والسمة الجوهرية فى كل ضروب النرجسية أن هناك دائما انشغالا متطرفا بالنفس وبكل اهتمامات صاحبها.
والنرجسية سميت كذلك نسبة إلى نرجس أو نرسيس Narcisse، وهو شخصية أسطورية إغريقية يقال أنه كان شديد الولع بصورة نفسه فقد تطلع يوما إلى مياه إحدى النافورات فنظر فى الماء صورة نفسه وكلف بالصورة وأحبها حبا ملك عليه حياته، حتى قفز آخر الأمر فى الماء ليلتقى بالصورة وغرق ومات وصار الزهرة التى تسمى باسمه وهى زهرة النرجس. (الحفنى)

السن المبكرة لايكونون قد عرفوا بعد كيف يميزون بين الأفعال الجنسية والأفعال العدوانية الخالصة تمييزاً واضحاً جداً كما يحدث لهم فيما بعد (من ذلك سوء الفهم السادى[1] للفعل الجنسى). ومن العجيب حقاً أن يسود العامل الجنسى، وعلى النظرية أن تدخل ذلك فى اعتبارها.

وهذه النقاط - **وهى الأحداث المبكرة فى السنوات الخمسة الأولى (من حياة الطفل)، والنسيان، والسمات التى تميز الجنسية والعدوانية** - تنتمى فى تقارب إلى بعضها البعض. والخبرات الأنوية إما خبرات جسدية أو مدركات، وخاصة المدركات التى تُسمع وتُرى، أى أنها إما خبرات أو انفعالات. وترتبط النقاط الثلاث نظرياً، أى بالتحليل. وهذه الطريقة وحدها هى التى تعطينا المعرفة بالخبرات المنسية أو - بصياغة الجملة بطريقة محسوسة أكثر ولو أنها طريقة أكثر خطأ - أنها الطريقة التى تعيد إلى الذاكرة الخبرات المنسية. وتقول النظرية إن الحياة الجنسية الإنسانية - أو مايتوافق فيما بعد معها - تبدى على عكس ماهو شائع، تفتحا مبكراً يبلغ نهايته فى نحو سن الخامسة، ثم يعقبها مايسمى بفترة الكمون - التى تستمر حتى سن البلوغ - وخلالها لايعود هناك مزيد من التطور الجنسى، بل بالعكس فالكثير مما تحقق يحدث له نكوص. وتتأكد النظرية بالدراسة التشريحية لنمو الأجهزة التناسلية الداخلية وتقترح أن الإنسان قد خرج من نوع من الحيوانات يكون ناضجاً جنسياً فى سن الخامسة. ويثار الشك فى أن تأجيل الحياة الجنسية فيما بعد الخامسة وحتى البلوغ، ثم عودتها من جديد للمرة الثانية،

١- السادية Sadism طراز من الانحراف الجنسى وتعنى أن المصاب بها لايتحصل اللذه الجنسية إلابتعذيب وإساءة معامله من يحب من الجنس المقابل، وأحياناً تطلق السادية عموما على حب القسوة. والسادية أخذت من اسم "ساد" وهو المركيز دوناتيان دى ساد Sade (١٧٤٠ - ١٨١٤) الكاتب الفرنسى الوجودى، وكان يعيش الحياة التى يصورها فى أدبه حياة تتسم بالتمرد على كل القيم حتى الله. ومن رأيه أن الدنيا قد خلقت وفيها الضعفاء والأقوياء، وأن الحكومة للأقوياء، وأن إرادة القوة فوق كل إرادة، وقد أصيب بلوثة عقلية وسجن مراراً، واتهم بتعذيب ضحاياه من النساء، وهجرته زوجته، وكان يتصل بالنساء اتصاله بالرجال، ومات فقيرا منسيا تعذبه الأمراض. وكانت رواياته محظورة، وكثيرا مانشرها سراً وبأسماء مستعارة. وللكاتبة الوجودية الفرنسية سيمون دى بوفوار بحث ممتع فى حياة المركيز دى ساد، ومن اسمه اقتبس فرويد اسم ساديه. (الحفنى)

له علاقة كبيرة بالانتقال من مرحلة هذا النوع الحيوانى إلى مرحلة البشرية. ويبدو أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى له فترة كمون وجنسية تتأخر. وقد تكون البحوث التى يمكن أن تجُرى على الحيوانات الثديية الراقية، وهى على قدر مأعرف لم تجر للآن، اختباراً للنظرية لاتقدر قيمته. وينبغى أن يكون توافق فترة الفقدان الطفولى للذاكرة مع هذا التفتح المبكر للجنسية، أمراً له دلالته النفسية. وربما كان وضع الأمور بهذا الشكل هو الشرط الضرورى لوجود العصاب الذى يبدو أنه امتياز اختُص به الإنسان، ويبدو فى هذا الضوء كما لو كان بعثاً من الأزمان البدائية - مثله فى ذلك مثل أجزاء الجسم.

ماهى السمات المشتركة لكل الأعراض العصابية؟ إننا هنا قد نشير إلى **نقطتين هامتين**، فآثار الخبرة الأنوية لها جانبان، أحدهما إيجابى والآخر سلبى، **والآثار الإيجابية** هى محاولات إحياء الخبرة الأنوية وتذكر الخبرة المنسية، أو أكثر من ذلك جعلها واقعية ومعايشة استعادتها مرة أخرى؛ فإذا كانت علاقة مبكرة لها أثرها فإنها تُبعث فى ارتباط تشبيهى مع شخص آخر. وتتلخص هذه المحاولات فى اصطلاح «تثبيت الخبرة الأنوية» و«جبر - التكرار»، ويمكن إدماج النتائج فيما يسمى الأنا الطبيعى وإضفاء صفات ثابتة عليه فى شكل اتجاهات ثابتة، مع أن - أو بالاحرى بسبب - السبب الحقيقى فى هذه النتائج وفى أصلها التاريخى قد نسى. ومن ثم فإن الإنسان الذى قضى طفولته متعلقاً بأمه تعلقاً مغالى فيه ولكنه نسيه منذ الطفولة، قد يقضى كل حياته يبحث عن امرأة بوسعه أن يعتمد عليها، تطعمه وترعاه. والفتاة التى يُغَرَر بها فى الطفولة المبكرة قد توجه حياتها الجنسية المستقلة نحو إثارة مثل هذا العدوان مرة تلو المرة. وهكذا نرى أن فهم مشاكل العصاب يمكننا من النفاذ إلى أسرار تكوين الشخصية عموماً.

أما **ردود الفعل السلبية** فهى تتبع هدفاً مناقضاً، وهنا لايبقى شئ يمكن تذكره أو تكراره من الخبرة الأنوية المنسية، ويمكن تجميع ردود الفعل السلبية معاً بوصفها ردود فعل دفاعية، وتعبر عن نفسها فى تجنب النتائج، وهو اتجاه قد يبلغ ذروته فى الكف أو الخوف. وتسهم هذه الردود السلبية كذلك بدرجة كبيرة فى تشكيل الشخصية، وهى فى الواقع تمثل تثبيت الخبرة الأنوية بدرجة لاتقل عما تفعله ردود الفعل الإيجابية، ولكنها تتبع

الاتجاه المناقض. وتُشكّل أعراض العصاب الصحيح إلتقاءً تُسهم فيه كل من الآثار الإيجابية والسلبية للخبرة الأنوية، وأحياناً مايبرز أحد العنصرين على الآخر. وتخلق ردود الفعل هذه المتعارضة صراعات لايقوى الفرد كقاعدة على حلها.

والنقطة الثانية هى: أن كل هذه الظواهر والأعراض وكذلك معالم الشخصية والتغييرات فى السمات والتى تستمر مع الشخصية، تُظهر خاصية الجبر، أى أنها تملك شدة نفسية عظيمة وتُظهر استقلالاً بعيد المدى للعمليات النفسية التى تتلاءم مع مطالب العالم الواقعى وتطيع قوانين التفكير المنطقى. وهى لاتتأثر بالواقع الخارجى، ولاتبالى بالأشياء الواقعية أو بما يساويها ذهنيا، حتى أن بوسعها أن تنشط نشاطاً يعارضها، فهى كالحكومة من داخل الحكومة، كشريك ليس فى الوسع النيل منه ولاترُجى منه فائدة للصالح العام. ومع ذلك فهى بوسعها أن تنجح فى التغلب على الآخر، الذى يقال له العنصر المركب السوى، وأن تنجح فى إرغامه على العمل فى خدمتها. فإذا حدث ذلك فإن سيادة الواقع النفسى الداخلى تتحقق على واقع العالم الخارجى، وينفتح الطريق إلى الجنون. وحتى لو لم تبلغ المسألة هذا الحد فإن الأهمية العملية للصراع لايمكن قياسها. وتشكل أنواع الكف بل وعدم القدرة على التعامل مع الحياة التى للناس الذين يسيطر عليهم العصاب عاملا مهماً جداً فى المجتمع الإنسانى. ويمكن اعتبار العصاب تعبيراً مباشراً «لتثبيت» مرحلة مبكرة من ماضيهم.

وماذا عن **الكمون**؟ إنه سؤال مهم بشكل خاص فيما يتعلق بالتشبيه الذى نحن بصدده. إن خبرة أنوية تمر بها مرحلة الطفولة يمكن أن يتبعها مباشرة عصاب خلال الطفولة، ويشكل ذلك مجهوداً للدفاع يصحبه تشكيل الأعراض. وقد يدوم العصاب لمدة طويلة ويسبب اضطرابات مثيرة، أو قد يظل كامناً ويُغفل أمره. وكقاعدة فإن الدفاع تكون له اليد العليا فى مثل هذا العصاب. وفى أى حادث تظل التغييرات فى الشخصية، مثل الندوب. ونادراً مايستمر عصاب الطفولة حتى البلوغ دون فترة تتخلل ذلك. والأكثر من ذلك أن فترة من النمو الذى لايعكره شئ قد تعقبه غالبا، وهى عملية ييسرها الكمون الفسيولوجى. ولايظهر التغيير إلا مؤخراً وبه يتضح العصاب نهائيا كأثر من آثار الخبرة الأنوية تأخر ظهوره. ويحدث هذا إما وقت البلوغ أو فيما بعد بقليل. وهو يحدث فى الحالة

الأولى لأن الغرائز وقد قوّاها النضج البدنى يمكنها من جديد أن تتولى المعركة التى هزمت فيها أول الأمر. ويتضح العصاب فيما بعد فى الحالة الثانية لأن ردود الفعل والتغييرات فى الشخصية التى تحدثها وسائل الدفاع تدلل على أنها عائق يحول دون حل مشاكل الحياة الجديدة، ومن ثم تقوم صراعات خطيرة بين مطالب العالم الخارجى ومطالب الأنا الذى يجاهد أن يحافظ على التنظيم الذى طوره بمشقه فى كفاحه الدفاعى. وينبغى الإقرار بأن ظاهرة الكمون فى العصاب تقع بين ردود الفعل الأولى للخبرة الأنوية والظهور اللاحق للمرض كظاهرة نموذجية. ويمكن اعتبار المرض كذلك محاولة للعلاج، أى محاولة لمصالحة الأنا المنقسم - قسمته الخبرة الأنوية - على باقى الجهاز النفسى، ولتوحيده فى كلٍ قوى لديه القدرة على مجاراة العالم الخارجى - ومع ذلك فإن مجهوداً كهذا نادراً ماينجح مالم نسع إلى مساعدة التحليل النفسى، وحتى مع ذلك لايتحقق النجاح دائماً. وكثيرا ماينتهى بتدمير الأنا وتحطيمه تحطيما تاما، أو بأن يُغلَب الأنا على أمره بالجزء الذى انفصل عنه مبكرا والذى سيطرت عليه منذ ذلك الحين الخبرة الأنوية.

ولكى أقنع القارئ بحقيقة ماأقرره هنا أجد من الضرورى أن أسرد عليه عدداً من تاريخ حياة عدد من المرضى العصابيين. ولكن صعوبة الموضوع تؤدى إلى الاستطراد فيه بشكل كبير وتدمير شخصية هذا المقال تماما، وقد يتحول إلى كتيّب فى الأمراض العصابية ومن ثم يفرض الاقتناع به على قلة من الناس الذين وهبوا كل حياتهم لدراسة وممارسة التحليل النفسى. ولكن حيث أنى هنا أتحدث إلى جمهور أكبر فليس لى إلاّ أن أسأل القارئ أن يجرّب تصديق العرض المختصر الذى أتم قراءته حالا، وأنا من جهتى أوافق على ألاّ حاجة به إلى تقبل النتائج التى خَلصتُ إليها والتى أضعها أمامه إلاّ إذا تبين أن النظريات التى تقوم عليها قد ثبتت صحتها.

ورغم ذلك بوسعى أن أجرّب سرد حالة واحدة ستُظهر بوضوح كثيراً من خصائص العصاب التى أوردتها قبلا. ولايمكن بالطبع أن تبيّن حالة واحدة كل شئ، ولذلك لن يخيب رجائى إذا بدت محتوياتها بعيدة عن التشبيه الذى نسعى إليه....

كان هناك ولد صغير يقاسم أبويه حجرة نومهما كما يحدث كثيراً فى أسرة القشرة الدنيا من الطبقة المتوسطة، وكانت له فرص كبيرة بل ومنتظمة يشهد فيها جماعاً جنسياً

بين أبويه فى سن لم يكن فيها قد بلغ القدرة على الكلام. ورأى كثيراً وسمع الأكثر. وفى عصابه اللاحق الذى انبثق فور أول قذف منوى له، كان النوم أول عَرَض يصيبه وأكثر الأعراض مشقة له، فقد صار حسّاساً بدرجة غير عادية للضوضاء أثناء الليل، وإذا أوقظ لايستطيع أن ينام مرة أخرى. وكان هذا الاضطراب عَرَضاً توفيقياً حقيقياً : تعبير عن دفاعه ضد ملاحظاته الليلية، وهو من ناحية أخرى المحاولة لاستعادة اليقظة التى مكّنته من الاستماع إلى تلك التجارب.

وبدأ الولد وقد أثارته تلك الملحوظات فى وقت مبكر وبعثت فيه رجولة عدوانية، بدأ يثير قضيبه بالملامسة ويقوم بمحاولات جنسية يجترئ بها على أمه، واضعاً نفسه بهذه الطريقة فى مكان أبيه بأن يرى نفسه فيه. واستمر الحال على هذا الوضع حتى نهرته أمه أخيراً عن ملامسة قضيبه وهدّدته بإطلاع أبيه لينتزع منه عضوه المسئ. ويترك هذا التهديد بإخصائه[1] أثراً أنوياً قوياً جداً على الولد، فيكبت نشاطه الجنسى، وتتعرض شخصيته للتغيير، وبدلاً من أن يرى نفسه فى أبيه يبدأ يخشاه ويسلك إزاءه سلوكاً سلبياً، وأحياناً مايعصاه من وقت لآخر، ويثير أباه بهذه الطريقة حتى ليعاقبه بدنياً. ولهذا العقاب البدنى معنى جنسى بالنسبة له، لأنه به يكون بوسعه أن يتمثل نفسه فى أمه التى (يتوهم أنها) تُساء معاملتها(بالجماع). ويبدأ الولد يلتصق أكثر فأكثر بأمه، كما لو كان لايستطيع أن يتحمل الوجود بدون حبها، حتى ولو للحظة طالما أن هذا الحب يشكل بالنسبة له حماية ضد خطر الإخصاء الذى يتهدده من قِبَل أبيه. وتنقضى فترة الكمون فى هذا التعديل لعقدة أوديب[2]، وتبقى متحررة من أية اضطرابات ظاهرة، وبذلك فقد ينشأ هذا الولد طفلاً

١- الإخصاء castration هو إزالة الخصيتين من الذكر أو المبيضين من الأنثى، وهما غدد الجنس. ويعرف القلق الخصائى castration anxiety فى التحليل النفسى وهو القلق أوالخوف المرافق لفكرة إزالة الغدد الجنسية، كما تعرف أيضاً عقدة الخصاء castration complex وهى العقدة التى تسببها تهديدات إزالة الغدد الجنسية. (الحفنى)

٢- عقدة أوديب oedipus complex فى نظرية التحليل النفسى، لاشعورية عموما وتنمو فى الابن من التصاقه بأمه (التصاقا جنسى السمات طبقا للمحللين) وغيرته عليها من أبيه مع ماينتج من ذلك من شعور بالذنب والصراع العاطفى. وهى تنسب إلى أوديب ملك الإغريق الذى تزوج أمه وأنجب منها، والفرق بين العقدة والأسطورة أن أوديب فى الأسطورة لم يكن يعرف أنها أمه. (الحفنى)

نموذجياً ويحقق النجاح فى المدرسة.

وحتى الآن تتبعنا الأثر المباشر للخبرة الأنوية وأكدنا وجود مرحلة كمون. غير أنه مع البلوغ يظهر العصاب واضحاً، وفى حالة هذا الولد فإن العصاب أبان عن عَرَضه الرئيسى الثانى وهو العجز الجنسى، فافتقد الولد كل حساسية له فى قضيبه ولم يحاول أبداً أن يلمسه، ولم يجرؤ على الاقتراب جنسياً من امرأة. وظلت نشاطاته الجنسية محدودة داخل نطاق الاستمناء onanism النفسى المصحوب بخيالات سادية ماسوكية[1] يسهل عليه فيها استرجاع الأثر الذى خلفته عنده ملاحظة ماكان يدور بين والديه من جماع فى وقت مبكر من حياته. ويتحول اندفاع الرجولة المتزايدة التى أتى بها البلوغ إلى كراهية شديدة عند الولد لأبيه ومعارضته له. وهذه العلاقة السلبية المتطرفة مع أبيه، التى أضرّت بمصالحه حتى الآن، تكون السبب فى فشله فى الحياة وصراعاته مع العالم الخارجى. ولا يكون بوسعه أن يسمح لنفسه أن يكون ناجحا فى مهنته لأن أباه قد أجبره على امتهانها. ولم يكن يعقد صداقات مع أحد، وكان على صلات سيئة برؤسائه دائما. وأخيراً يجد هذا الابن زوجة له بعد وفاة أبيه وبعد أن تُعييه هذه الأعراض وألوان العجز، وحينئذ تظهر أخلاقه الحقيقية وتبين وهى التى جعلت من العسير معايشته، ويتطور إلى شخصية مطلقة الأنانية طاغية وقاسية. وكان من الضرورى له بشكل واضح أن يضايق ويضطهد الناس الآخرين. وكان صورة طبق الأصل من أبيه، وكان على صورته التى شكلتها له ذاكرته، أى أنه بعث فى نفسه الصورة التى تمثّل نفسه فيها على منوال أبيه، والتى كانت سببا فى تبنّيه لدوافعه الجنسية. وفى هذا الجزء من العصاب نتعرف على عودة المكبوت الذى - بالتأثير المباشر للخبرة الأنوية وظاهرة الكمون - وَصَفْتُه بأنه على رأس الأعراض الرئيسية للعصاب.

* * *

١- الماسوكية Masochism هى اللذة وخاصة اللذة الجنسية التى تحدث لدى صاحبها فى حالات إنزال ألم جسدى به. وهى لذة تفسرها مدرسة التحليل النفسى فى ضوء الغرائز التدميرية أو مايسمى بغرائز الموت death instincts ، وترتبط بالحب. واسم الماسوكية مأخوذ من اسم الكاتب النمسوى ماسوك Masoch وكان مريضا بهذا الداء النفسى. (الحفنى)

-٤-

التطبيق

الخبرة الأنوية المبكرة - والدفاع - والكمون - وتفجُّر العصاب - والعودة الجزئية للمادة المكبوتة : كانت هذه هى الصيغة التى كوناها عن تطور العصاب[١]. وإنى الآن أدعو القارئ أن يسير خطوة إلى الأمام وأن يفترض أنه فى تاريخ الجنس البشرى قد حدث شئ مايشبه الأحداث التى تجرى فى حياة الفرد، أى **أن البشرية ككل مرّت كذلك بصراعات لها طبيعة جنسية - عدوانية تركت آثاراً دائمة**، ولكنها قوُومت فى الجزء الأكبر منها وتنوسيت، ومن بعد، وبعد فترة طويلة من الكمون بُعثت مرة أخرى وخَلقَت ظواهر تشبه فى مبناها واتجاهها الأعراض العصابية.

وأعتقد أنى تنبأت بهذه العملية وأرغب أنْ أُبيّن أن نتائجها التى تشبه شبهاً قوياً الأعراض العصابية، **هى ظواهر الدين**. وطالما أنه من غير الممكن أكثر من ذلك وبعد اكتشاف نظرية الارتقاء، الشك فى أن البشرية كان لها تاريخ قبل التاريخ المكتوب؛ وطالما أن هذا التاريخ غير معروف (أى أنه منسى) فإن لمثل هذه النتيجة معنى البديهية تقريباً. فإذا تعلمنا أن التجارب الأنوية ذات الأثر والتى تُنسى، وتعزى هنا وكذلك هناك إلى الحياة فى الأسرة الإنسانية، لوجب أن نرحب بهذه المعلومة باعتبارها نعمة غير مرئية مُحتَفى بها جداً ولكنها كانت متوقعة من المناقشة السالفة.

ولقد سبق لى أن تناولت هذا الموضوع، منذ ربع قرن مضى، فى كتابى (الطوطم والمحرم"Totem and Taboo" سنة ١٩١٢) وما علىّ إلا أن أكرر ماقلته هناك. وبدأت المناقشة ببعض الملحوظات التى ساقها دارون[٢] وضمّت فكرة قال بها أتكنسون[٣]. وهى

١- فى هذا الفصل يتحدث فرويد عن نشأة الدين والأخلاق وتطور المجتمعات، والديانة اليهودية بوصفها ديانة أب، والمسيحية باعتبارها ديانة إبن، وكذلك يتحدث عن أصل المأساة فى المسرح عموما، وأصل العداء للمسيحية. (الحفنى)

٢- تشارلز دارون Darwin (١٨٠٩ - ١٨٩٢) من المفكرين المحوريين، أى الذين يعتبرون نقط تحول فى تاريخ الفكر. ولد فى انجلترا، وهو عالم نبات. ومن كتبه أصل الأنواع الذى أثر على الفكر العالمى بدرجة لم يسبق لها مثيل حتى لقبت مجموعة مبادئه باسم الداروينية، ولقد أثر على فرويد تأثيرا كبيرا، ونلاحظ أن المهاد الفلسفى مثل مبدأ العلّية قد أخذه فرويد عن دارون، وهو ماكان محل نقد من علماء النفس اللاحقين الذين هاجموا مبدأ العلية نفسه. (الحفنى)

٣- عالم اجتماع. (الحفنى)

تقول إن الناس عاشت فى الأزمان البدائية فى عشائر صغيرة، كلُ منها يحكمها ذَكَر قوى. ولانعرف متى كان ذلك لعدم توفر المعلومات التى تقدمها الكشوف الخاصة بطبقات الأرض، وربما لم يكن الإنسان متقدماً كثيراً فى فن الكلام. ويقوم جزء كبير من المناقشة التى نقدمها على أن البدائيين بما فيهم كذلك كل أسلافنا، جرى عليهم المصير الذى سنصفه الآن.

وتُحكى القصة بطريقة مركّزة جداً وكأنّ مااستغرق فى الحقيقة قرونا لتحقيقه- وفى ذلك الزمن الطويل تكرر كثيراً بلا حساب - أقول إنه كما لو كان قد حدث مرة واحدة فقط. وكان الذَكَر القوى هو سيد وأبو العشيرة كلها، لاحدود لقوته التى استخدمها بوحشية. وكانت كل الإناث مِلْكه، وكل الزوجات والبنات فى عشيرته- وكذلك كل اللواتى يُسرَقن من العشائر الأخرى- كن مِلْكه. وكان مصير الأبناء قاسياً، فإذا أثاروا غيْرة الأب كانوا يُقتَلون أو يُخصون أو يُطردون. وكانوا يُضطرون إلى السكنى فى مجموعات صغيرة، وأن يُزودوا أنفسهم بالزوجات بأن يسرقوهن من الآخرين، ثم قد ينجح واحد أو آخر من الأبناء فى التوصل إلى موقف يشبه موقف الأب فى العشيرة الأصلية. وتحقق موقفُ مُوَاتٍ بطريقة طبيعية : وكان هو موقف الابن الأصغر الذى قد يستفيد من تقدم سن أبيه، يحميه فى ذلك حب أمه له، ويحل محل الأب بعد موته. ويبدو صدى طرد الابن الأكبر مُهَوَّماً بكثير من الأساطير والخرافات، وكذلك صدى مركز الحظوة التى ينالها الإبن الأصغر.

وتوجد الخطوة الحاسمة التالية نحو تغيير هذا النوع من التنظيم «الاجتماعى» فى النظرية التالية : أن الإخوة الذين طُردوا وعاشوا مع بعضهم فى مجموعة تكاتفوا معاً وهزموا الأب - وتبعاً لعادة تلك الأزمان - اقتسموا جميعاً جسده. ولاينبغى أن يصدمنا أكلهم للحم البشر، فقد عاش ذلك التقليد لأزمان طويلة من بعد، ولكن المهم أننا ننسب إلى هؤلاء البدائيين نفس المشاعر والعواطف بواسطة بحوث التحليل النفسى. بمعنى أنهم لم يكرهوا ويخشوا أباهم فقط، ولكنهم مجدّوه كَمَثَل يُتّبع. والحقيقة أن كل ابن أراد أن يضع نفسه فى مكان أبيه، ومن ثم يصبح فعل أكل لحم البشر مفهوما **كمحاولة لتأكيد التماثل الذى يريده الابن لنفسه مع أبيه بأن يُدمج جزءاً من الأب فى نفسه.**

وإنه لتصور معقول أنه قد جاء وقت بعد مقتل الأب تشاجر فيه الإخوة مع بعضهم

البعض حول من يخلفه، وهو منصب أراد كل منهم أن يحوزه لنفسه وحده. وانتهوا إلى أن المعارك كانت خطيرة كما هى غير مثمرة. وأدى هذا الفهم الذى دفعوا ثمنه باهظاً، وكذلك ذكرى فعل التحرير الذى حققوه معاً، والتعلق ببعضهم البعض الذى نما بينهم خلال ذلك النصر - أدى إلى وحدة جمعت بينهم أخيرا، هى نوع من العقد الاجتماعى. وهكذا ظهر إلى الوجود أول شكل لتنظيم اجتماعى يصحبه نبذ للإرضاء الغريزى، واعتراف بالتزامات متبادلة، وإعلان قداسة بعض العادات التى ماكان من الممكن خرقها - بالاختصار بدايات الأخلاق والقانون. ونبذ كلُ منهم ماكان يتمثله من التوصل إلى مركز الأب وامتلاك أمه أو أخته. وتواجد ضمن هذه الأخلاق تحريم الزنا بالأقارب وقانون الزواج من الأباعد، وانتقل جزء طيب من السلطة التى خلت بوفاة الأب إلى النساء، وتلاَ ذلك زمن السلطة الأموية. وعاشت ذكرى الأب طوال زمن «عشيرة الأخ»، ووجد حيوان قوى، ربما كان محل خشية فى أول الأمر، كبديل للأب. وقد يبدو اختيار كهذا غريباً بالنسبة لنا، ولكن الهوة التى خلقها الإنسان فيما بعد بين نفسه وبين الحيوانات لم توجد بالنسبة للإنسان البدائى، ولاهى توجد بين أطفالنا الذين استطعنا أن نفسر مخاوفهم من الحيوانات باعتبارها مخاوف من الأب. واستبقت العلاقة بالطوطم الشعور المزدوج الأصلى تجاه الأب، فقد كان الطوطم من ناحية هو السلف المتجسد والروح الحامية للعشيرة، ومن ثم كانوا يقدسونه ويحمونه. ومن ناحية أخرى أقيم للطوطم مهرجان وكانوا يواجهونه فى يوم المهرجان بنفس المصير الذى واجهه الأب البدائى. وكان كل الإخوة يشتركون معاً فى قتله وأكله (وهو مايسميه روبرتسون سميث[1] عيد الطوطم). وكان هذا اليوم العظيم فى الواقع عيداً للنصر، احتفالاً بانتصار الأبناء المتحدين على الأب.

فأين يقع الدين من هذا كله؟ إن الطوطمية، بعبادتها لبديل عن الأب، وبالازدواجية نحو الأب التى تتضح فى عيد الطوطم، وبإقامة المهرجانات التى تذكّر به، وبفرض قوانين

١- عالم اجتماع.

يُعاقَب على خرقها بالموت - **هذه الطوطمية، كما استنتجُ، يمكن النظر إليها على أنها أول ظهور للدين فى تاريخ البشرية**، وهى تُصوِر الارتباط الوثيق الذى يوجد منذ فجر الزمن بين الشرائع الاجتماعية والالتزامات الأدبية. ويمكن أن نعالج هنا التطور اللاحق بطريقة موجزة. ولاشك أن الدين سار فى خطٍ متوازٍ مع التطور الثقافى للبشرية والتغييرات التى ألَمّت ببناء التشريعات الاجتماعية الإنسانية.

وكانت الخطوة التالية التى كان على الطوطمية أن تخطوها إلى الأمام - **هى تأنيس الكائن المعبود**، وبها تأخذ الآلهة الإنسانية - التى لايخفى أن أصلها يمتد إلى الطوطم - المكان الذى كانت الحيوانات تشغله قبلاً، فإمّا أن الإله يُمثَّل كحيوان أو أنه على الأقل يَحمِل ملامح الحيوان، وقد يصبح الطوطم الرفيق المتلازم مع الإله؛ وإما أن الأسطورة تجعل الإله مرة أخرى يلاشى ذلك الحيوان الذى لم يكن شيئاً سوى أنه سلفه. وفى وقت من الأوقات - ومن الصعب أن نقول متى كان ذلك - **ظهرت كبريات الإلاهات الأمهات**، ربما قبل ظهور الآلهة الذكور، وعُبدت إلى جوار الذكور لفترة طويلة تالية. وقامت خلال ذلك الوقت ثورة اجتماعية كبرى، **وأعقب النظام الأموى إعادة النظام الأبوى**. والواقع أن الآباء الجدد لم يصلوا أبداً إلى السلطة المطلقة التى كانت للأب البدائى، وكان هناك الكثيرون منهم، وعاشوا فى مجتمعات أكبر مما كانت تعيش فيه العشيرة الأصلية، وكان عليهم أن يتماشوا مع بعضهم البعض والتزموا التشريعات الاجتماعية. ومن المحتمل أن المعبودات الأمهات تطورنّ عندما تحدد النظام الأموى، وذلك لكى تنال الأمهات اللاتى أُبعدن عن عرش السلطة تعويضاً عما سُلِبْنَه، وفى أول الأمر تظهر الآلهة الذكور كأبناء إلى جوار كبريات الأمهات، ولم يكتسبوا بوضوح سمات الأب إلاّ فيما بعد. وتعكس هذه الآلهة الذكور التى برزت فى فترة تعدد الآلهة ظروف عصور السيادة الأبوية، فهى آلهة عديدة، وكانوا يتقاسمون السلطة التى لهم، وأحيانا كانوا يطيعون إلها أكبر. وتقودنا الخطوة التالية إلى الموضوع الذى يهمنا هنا : **وهو عودة الإله الأب الواحد ذو السلطة التى لاتحد**.

وينبغى أن أعترف بأن هذه النظرة التاريخية تترك الكثير من الفجوات وتحتاج فى كثير من النقاط إلى تثبّت أكثر. ومع ذلك فإن من يعلن أن هذه النظرة التاريخية التى تُعيد بناء التاريخ البدائى نظرية خيالية يسئ تقدير غناها وقوة الدليل التى أسهمت فى إقامته. ولقد ثبتت صحة أجزاء كبيرة من تاريخ الماضى أو أن آثارها ماتزال باقية حتى اليوم، مثل الحق

الأموى، والطوطمية، والمجتمعات الذكَرية، وهذه الأجزاء هى التى نضمها هنا معاً فى كل. وعاشت بعض هذه الأجزاء فى شكل صورة أعيدت إلى الحياة بطريقة عجيبة. ومن ثم فإن أكثر من مؤلف قد حدث لهم أكثر من دهشة من **التشابه الوثيق بين طقوس التناول المسيحية – حيث يتناول المؤمن رمزياً دم ولحم إلهه – وبين عيد الطوطم الذى يبعث إلى الحياة معناه الداخلى.** ومانزال بقايا عديدة من تاريخنا المبكر المنسى محفوظة فى أساطير وخرافات الشعوب، وأثمرت الدراسة التحليلية للحياة النفسية للطفل نتائج غنية غير متوقعة تعود بنا إلى الماضى وتملأ الفراغات فى المعرفة التى لدينا عن العصور البدائية. وكمساهمة منى نحو فهم العلاقة الهامة للغاية بين الأب والإبن، ماعلىّ إلاّ أن أردد مخاوف الأبناء من الحيوانات وخشيتهم أن يأكلهم أبوهم (وهو مايبدو للإنسان الراشد شيئاً غريباً للغاية)، والثقل الضخم الذى لعقدة الخصاء. ولايوجد شئ فيما نتصوره للماضى اخترعناه، ولايوجد شئ لاينهض على أسباب معقولة.

ولنفترض أن مانتصوره هنا للتاريخ البدائى شئ يمكن تصديقه ككل، وحينئذ بوسعنا أن نتعرف فى الطقوس والمذاهب الدينية على عنصرين : فمن ناحية تتثبت بعض نواحى التاريخ الأسَرى القديم وتستمر فى الوجود، ومن ناحية أخرى فإن الماضى يُبعث إلى الحياة ويعود بعد أن يكون قد تنُوسى بزمن طويل. وهذا البعث وتلك العودة هما عنصران تُغوُضِىَ عنهما حتى الآن ولم يُفْهَم أمرهما لذلك، ومن ثم سنضرب لهما هنا مثلاً واحداً على الأقل ولكنه مثل له وزنه.

ويجدر بوجه خاص أن نلاحظ أن كل ذِكْرى تعود من الماضى المنسى تعود بقوة هائلة، وتحدث أثرا قوياً لايضاهيه أثر آخر على جماهير البشر، وتفرض دعواها فرضاً على العقل حتى ليتكسر أمامها كل اعتراِض منطقى – تماما كالمَثَل الذى يقول إنى أومن بما لايُعقل credo quia absurdum. ولايمكن فهم هذه الخاصية الفريدة إلا بمقارنتها بالخيالات التى يتوهمها المريض النفسى، فمن المسلم به من زمن طويل أن الخيالات فى المرض النفسى تشتمل على جزء من حقيقة منسية، وأن هذه الحقيقة المنسية تعود فى يوم من الأيام، ولكنها تعود مشوَّهة، وعليها أن تَتَقَبَل هذا التشويه وأن يُساء فهمها. ومن المسلم به كذلك أن هذا الجزء هو الذى يجعل المريض يعتقد اعتقاداً جازماً فى صدق خيالاته، ليس لسبب سوى أنها تغلّف هذا الجزء وتنبع من صميمه. هذه النواة من الحقيقة – التى يمكن أن

نسميها حقيقة تاريخية - ينبغى أن تحوُّل كذلك إلى مذاهب الديانات المختلفة، فالواقع أن الديانات تصطبغ بسمة الأعراض المَرَضيَة النفسية، وإذا كان المريض يفقد صلته بالناس وينعزل لذلك، فإن الديانات رغم مابها من أعراض مَرَضية نفسيه لم تحلِّ بها لعنة الانعزال لأنها ظواهر جماعية.

ولم يتضح أى جزء آخر من التاريخ الدينى الوضوح الضخم الذى أقيم عليه التوحيد بين الشعب اليهودى، واستمرار هذا التوحيد فى الديانة المسيحية إذا حذفنا التطور من الطوطم الحيوانى إلى الإله الإنسانى الذى صحبه بشكل منظم رفيق (حيوانى)، وهو تطور يمكن تتبعه دون أن توجد ثغرة فى ذلك التتبع ويمكن فهمه بسهولة. (وبالمناسبة فإن كلاً من المبشرين الإنجيليين الأربعة مايزال له حيوانه المفضل). فإذا سلَّمنا مؤقتا أن حكم إمبراطورية فرعون كان السبب الخارجى لظهور فكرة التوحيد، فإننا نرى أن هذه الفكرة - التى انتُزعت من تربتها ونُقلت إلى شعب آخر - قد تملَّكت هذا الشعب بعد فترة كمون طويلة، واكتنزتها كأغلى ما يُمتَلك، وأن هذه الفكرة بدورها قد أبقت على هذا الشعب حيويته بأن أضفت عليه افتخار أنه الشعب المختار. وهى دين الأب البدائى ويرتبط بها الأمل فى المكافأة والامتياز ثم أخيراً سيادة العالم[1]. وهذه الأمنية الأخيرة أى سيادة العالم - التى أمسك عنها الشعب اليهودى من زمن طويل[2] - ماتزل تعيش بين أعدائه فى اعتقادهم فى تآمر «حكماء صهيون[3]». وسنناقش فى فصل لاحق كيف أن الخصائص المميزة للديانة التوحيدية المستعارة من مصر لابد قد أثَّرت فى الشعب اليهودى، وكيف شكَّلت أخلاقه تشكيلاً للأحسن من خلال احتقار السحر والاعتقادات الباطنية وتشجيعه على التقدم الفكرى وأوجه تسامى النفس. وقدر الشعب المنجزات العقلية والأخلاقية تقديراً عالياً لأنه كان سعيداً فى اعتقاده بأنه يملك الحقيقة، ولأنه قد ملأه الوعى بأنه الشعب المختار[4]. وسنوضح كذلك كيف كان بوسع مصيره والمصائب التى كان يدخرها الواقع له

١- أنظر بتمعن العلاقة بين فكرة سيادة العالم وبين التدين اليهودى ومن ثم الأصل الدينى للفكرة. (الحفنى)

٢- كتب فرويد كتابه ولم تكن دولة إسرائيل قد ظهرت ولكن الإيديولوجية الصهيونية والخريطة التى قدمها الصهاينة لعصبة الأمم كخريطة لدولة إسرائيل تثبت أن اليهود لم يتخلوا عن الفكرة أبدا. (الحفنى)

٣- نسبة إلى بروتوكولات حكماء صهيون، وهو المخطط اليهودى للاستيلاء على العالم وإخضاعه للسيطرة اليهودية، ويقع فى ٢٤ فصلا، وعرف أمره سنة ١٨٩٧ فى المؤتمر الصهيونى ببازل بسويسره، ونسب تأليفه إلى إشرجيزنبرج من يهود أوديسا ويعرف باسمه القلمى «أحد هاعام»، أى أحد أفراد الشعب، وقد هاجر إلى فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى ومات بها سنة ١٩٢٧. (الحفنى)

٤- لاحظ النغمة العنصرية المتباهية غير الموضوعية فى كلام فرويد. (الحفنى)

أن تُقوّى كل هذه الميول. وسنتابع الآن تطوره التاريخى فى اتجاه آخر.

وكانت إعادة الحقوق التاريخية إلى الأب البدائى إشارة إلى تقدم عظيم، ولكن ماكان من الممكن أن تكون هذه الإعادة هى النهاية، فقد ألحّت الأجزاء الأخرى كذلك من مأساة ماقبل التاريخ على أن يُعترف بها. وليس من السهل أن نقول كيف حدث ذلك. ويبدو أن إحساساً متزايدا بالذنب قد أمسك بالشعب اليهودى - وربما بكل حضارة ذلك الزمن، كنذير بعودة المادة المكبوتة. واستمر هذا حتى أسس أحد أفراد الشعب اليهودى، فى شكل داعية سياسى - دينى، مذهباً انفصل - مع مذهب آخر هو الديانة المسيحية - عن الديانة اليهودية. وأمسك **بولس**[1] **اليهودى الرومانى** من طرطوس بهذا الإحساس بالذنب وتتبعه تتبعاً صحيحا إلى منبعه البدائى. وأطلق على هذا اسم **الخطيئة الأصلية**، وكانت هذه الخطيئة جريمة فى حق الإله، وماكان فى الوسع التكفير عنها إلا بالموت، فالموت قد نفذ إلى العالم من خلال الخطيئة الأصلية. والواقع أن هذه الجريمة التى يستحق مرتكبها الموت، كانت اغتيال الأب الذى أصبح معبوداً فيما بعد، وأما الفعل الإجرامى نفسه فقد تنوسى، وحلّ محله وهم التكفير، وهذا هو السبب فى أن هذا الوهم كان فى الوسع الترحيب به فى شكل بشارة خلاص (إنجيل). وضحّى ابن للإله، هو نفسه برئ، ضحّى بنفسه، وبذلك تحمل ذنب العالم. وكان لابد أن يكون فاعل ذلك إبن، لأن الخطيئة كانت اغتيال الأب. وربما كان للتراث الأسطورى الشرقى والإغريقى أثره على تشكيل وهم الخلاص هذا. ويبدو أن جوهر الخلاص هو ماأضافه بولس إلى المسيحية، فقد كان إنساناً له موهبة الدين بأصدق معانى الجملة، وكانت فى أعماق روحه آثار للماضى مستعدة للنفاذ عنوة إلى مناطق الوعى.

وكانت تضحية المخلّص بنفسه، كإنسان برئ، تشويهاً متعمداً واضحاً يصعب التوفيق

١- اسمه القديم شاول، وكان يضطهد المسيحيين بعنف، ولكنه ارتد عن يهوديته واضطهاده للمسيحيين وهو فى طريقه من القدس إلى دمشق نحو سنة ٣٣ ميلادية، وتعمّد على حنينا، ثم اختلى فى شمال جزيرة العرب مدة ثلاث سنوات، ومن بعدها باشر تبشير الأمم بالمسيحية فكان رسولها الممتاز رغم مقاومة اليهود قومه له، وبشّر مدن آسيا الصغرى (ومنها أفسس وغلاطيا) ومكونيا ومدينة كورنثه، وكرّز فى أثينا، وحُبس فى القدس مرتين، وسيق إلى روما حيث قُطع رأسه سنة ٦٧م.، وله ١٤ رسالة موجهة إلى الكنائس المختلفة وإلى بعض تلاميذه أهمها رسائل غلاطيا وأفسس وكورنثوس وروما. (الحفنى)

بينه وبين التفكير المنطقى، فكيف كان من الممكن أن يأخذ إنسان برئ على نفسه ذنب القاتل بأن يسلّم نفسه للقتل؟ ولايوجد مثل هذا التعارض فى الواقع التاريخى. «فالمخلّص» لايمكن أن يكون سوى من كان أكثر الناس ذنباً، وهو زعيم عشيرة الأخ التى تغلبت على الأب. وينبغى فى رأيى أن يظل، ماإذا كان قد وُجد متمرد وزعيم أكبر كهذا، شيئاً غير مؤكد، ومن المحتمل جداً أنه وجد، ولكننا ينبغى كذلك أن نعتبر أن كل فرد من أفراد عشيرة الأخ كان يتمنى بالتأكيد أن يكون المضّحى بنفسه، وبذلك يخلق لنفسه مركزاً فريداً كبديل عن التشبه بالأب، هذا التشبه الذى كان عليه أن يتخلى عنه عندما كان مغموراً فى جماعته. وإذا لم يكن هناك زعيم كهذا، إذن لكان المسيح الوريث لأمنية لم تتحقق؛ وإذا كان قد وجد مثل هذا الزعيم فإذن يكون المسيح هو خليفته ومُجَسِّده. ومع ذلك فليس من المهم أن يكون ماعندنا هنا هو أمنية أو عودة لواقع قد نسى، فعلى أى حال فإنه يوجد هنا **أصل فكرة البطل** – وهو الذى يتمرد على الأب ويقتله بشكل مُقنّع أو بآخر[1]. وهنا أيضاً المنبع الحقيقى **«للذنب المأساوى»** الذى للبطل فى الدراما – وهو ذنب من الصعب إظهاره بشكل آخر. ولانشك أن البطل والجوقة فى المأساة الإغريقية يمثلان نفس هذا البطل وعشيرة الأخ. ولقد بدأ المسرح فى العصور الوسطى من جديد يعرض قصة آلام المسيح عند الصلب، وهو شئ لايمكن أن يكون بلا معنى[2].

ولقد سبق لى أن ذكرت أن الاحتفال المسيحى فى التناول المقدس، حيث يتناول المؤمن لحم ودم المخلّص فيتوحد به، يكرر محتوى العيد القديم للطوطم، وهو يكرره فى الحقيقة فى معناه الرقيق الفتّان وليس فى معناه العدوانى. ويتضح مع ذلك تكافؤ الضدين الذى يسود علاقة الأب – الابن، فى النتيجة النهائية للابتكار الدينى، الذى كان الهدف منه استرضاء المعبود الأب، ولكنه ينتهى إلى عزله عن العرش ونبذه. وكانت **الديانة الموسوية ديانة أب، وصارت المسيحية ديانة إبن**، وشغل الإله القديم، الأب، المركز الثانى فيها، وحل المسيح، الابن، مكانه، تماماً مثلما كان يحدث فى تلك الأزمان المظلمة عندما كان ابن

١– يلفت إرنست جونز انتباهى إلى احتمال أن الإله ميثرا الذى يذبح الثور يمثل هذا الزعيم الذى تمجّد فى عمله بشكل بسيط.. ومن المعروف جداً كم طالت منازعة عبادة ميثرا للانتصار الذى أحرزته المسيحية أخيراً. (فرويد)

٢– يقدم فرويد هنا نظرية عن أصل المأساة عموما وليس فقط أصل المأساة الإغريقية. (الحفنى)

يتمنى أن يفعل ذلك. وصار بولس المحطم للديانة اليهودية بتطويره لها. ويرجع نجاحه فى أساسه إلى أنه من خلال فكرة الخلاص أوجد وهم الإحساس بالذنب، ويرجع كذلك إلى تخليه عن فكرة الشعب المختار والعلامة الظاهرة - وهى الختان. وهذه هى الطريقة التى بها يمكن أن تصبح الديانة الجديدة ديانة شاملة عالمية. ومع أن هذه الخطوة ربما كان الدافع إليها رغبة بولس فى الانتقام بسبب المعارضة التى واجه اليهود بها ابتكاره، فإنه قد **أعاد إحدى سمات ديانة أتون القديمة، وهى سمة العالمية**، ورفع عنها حَصَراً كانت قد اكتسبته خلال انتقالها إلى حامل جديد هو الشعب اليهودى.

وكانت الديانة الجديدة فى نواح معينة عبارة عن نكوص ثقافى بالمقارنة بالديانة اليهودية القديمة، وهذا يحدث بانتظام عندما تغزو جماهير جديدة من شعب ما، لها مستوى ثقافى أدنى، تغزو ثقافة أقدم أو تدخل إليها، فالديانة المسيحية لم تكن لها الارتفاعات الروحية السامقة التى حلّقت إليها الديانة اليهودية[1]. ولم تكن الديانة المسيحية ديانة توحيدية بمعنى الكلمة، فقد أخذت من الشعوب المجاورة طقوساً رمزية عديدة، وأعادت عبادة الإلاهة الأم الكبرى، وأفسحت مجالاً لمعبودات كثيرة من الديانات المتعددة الآلهة بشكل مقنّع ولكن يسهل اكتشافه، ولو أنها نصبتها فى أماكن ثانوية. وأكثر من ذلك لم تمتنع المسيحية، مثل ديانة أتون والديانة الموسوية اللاحقة عليها، على تسلل الخرافات إليها والعناصر السحرية والغامضة التى أثبتت أنها كانت عائقاً كبيراً فى سبيل التطور الروحى خلال الألفى سنة القادمتين.

وكان انتصار المسيحية نصراً مجدداً لكهنة أمون على إله أخناتون بعد فترة ألف وخمسمائة سنة وعلى نطاق أوسع. ومع ذلك كانت المسيحية علامة تقدم فى تاريخ الدين : أى فيما يتعلق **بعودة المكبوت**، ومن الآن فصاعداً، كما أرى، صارت الديانة اليهودية حفرية (أى شئ من الماضى عفى عليه الزمن).

وإنه لشئ له قيمته أن نحاول أن نفهم السبب الذى من أجله أثّرت الفكرة التوحيدية على الشعب اليهودى وحده هذا التأثير العميق، واستمسك بها كل هذا الاستمساك. وإنى لأعتقد أن هذا السؤال يمكن أن يكون جواباً، وهو أن العمل الذى هو عظيم وحقير فى

١- وكما نرى فإن فرويد يسوق آراءه بلاموضوعية وباعتساف شديد لابرهان له عليه. (الحفنى)

نفس الوقت، وهو قتل الأب الذى ساد فى العصور البدائية، نُقِل إلى اليهود كمصير مقدور، وهو أن يكرروه على شخص موسى، وهو بمثابة بديل للرب، ولكنه بديل عظيم. وكانت هذه حالة من الحالات التى يكون فيها فعل وليس تَذَكُّر، وهو شئ كثيرا مايحدث عند العصابيين خلال جلسات التحليل النفسى. ولقد استجاب اليهود لمذهب موسى - الذى لابد أنه أثار ذاكرتهم - وأنكروا ماارتكبوا فلم يتقدموا أكثر من اعترافهم بالأب الكبير، وتوقفوا عند النقطة التى بدأ منها بولس فيما بعد مواصلة التاريخ البدائى. وكان من الممكن أن يكون الموت العنيف لإنسان آخر عظيم فرصة يبدأ منها بولس إبداع ديانة جديدة. وكان هذا الإنسان يعتقد فيه عدد صغير من الأتباع من مملكة يهوذا أنه إبن للإله، وأنه المسيح الموعود، وهو الذى انتحل فيما بعد بعضاً من تاريخ الطفولة الذى كان متعلقاً بموسى. والواقع أننا لانملك تقريباً معرفة محددة بتاريخه أكثر مما نعرف عن موسى، ولانعرف هل كان هو حقيقة الإنسان العظيم الذى تَصوَّره الأناجيل، أم أن واقعه موته وظروفها كانت بالأحرى هى العامل الحاسم فى إضفاء هذه الأهمية عليه. وحتى بولس الذى صار رسوله لم يكن هو نفسه يعرفه.

وهكذا صار مقتل موسى الذى ارتكبه شعبه والذى رآه سيللين فى آثار التراث، والذى تصوره جوته[1] الشاب دون أن يقوم عليه أى دليل، وهو شئ غريب للغاية - صار جزءاً لايتجزأ من تفكيرنا، وهمزة وصل هامة بين العقل المنسى للعصور البدائية ومعاودة ظهوره بالتالى فى شكل الديانات التوحيدية[2]. وإنها لفكرة جذّابه أن نقول بأن الذنب المتعلق بمقتل موسى ربما كان هو الدافع إلى قيام أمنيةٍ ظهور المسيح الذى سيعطى شعبه الخلاص والسيادة الموعودة على العالم. **فإذا كان موسى هو هذا المسيح الأول، فإن يسوع صار بديله وخليفته**، وحينئذ يحق لبولس بعض الشئ أن يقول للشعوب

١- Israel in der Wuste, vol. VII of the Weimer edition, p.170.

وجوته Goethe (١٧٤٩ - ١٨٣٢) هو أكبر كتّاب المانيا شهرة وأرفعهم قدراً فى الشعر وأرقامهم أدباً، وُلد فى فرانكفورت، وصادق دوق فيمار وتبعه إلى فرنسا عند غزوها سنة ١٧٩٢ وصار وزيره. ومن أشهر أعماله فاوست، وإيجمونت، والديوان الشرقى للشاعر الغربى. على ان الأكبر من ذلك جميعه شخصية جوته المتألقة التى ملكت زمام الحكمة والعلم والأدب. (الحفنى)

٢- فيما يتعلق بهذا قارن عرض فريزر المشهور فى (الغصن الذهبى Frazer : The Golden Bough)، الجزء الثالث المعنون «الإله الميت» (١٩١١). (فرويد)

: «أنظروا، إن المسيح قد قدم حقيقة، ولقد قتل حقاً أمام أعينكم». وحينئذ تكون هناك أيضاً بعض الحقيقة التاريخية فى إعادة مولد المسيح، **لأنه كان موسى الذى بُعِث حياً، وكان كذلك الأب البدائى العائد للعشيرة البدائية - بشكل مغاير هذه المرة، وكإبن فى مكان أبيه.**

ولقد كفّر الشعب اليهودى المسكين الذى استمر على عناده وصلابة رقبته فى إنكار مقتل «أبيه»، كفّر عن ذلك تكفيراً غاليا خلال القرون، وسمع المرة تلو الأخرى الاتهام الذى يقول :«أنتم قتلتم إلهنا»، وهذا الاتهام فى محله إذا فُسِّر التفسير الصحيح، وهو يرقى إلى القول فى إطار التاريخ الدينى :«إنكم لن تقروا بأنكم قتلتم الإله»، (ويقصدون بالإله هذا الإله أو الأب البدائى أو مايتجسد فيه من أشكال أخرى). وكان ينبغى أن يضاف إلى ذلك : «ولقد فعلنا نحن أنفسنا هذا الشئ نفسه، ولكننا أقررنا بما فعلنا، ومنذ ذلك الوقت تطهّرنا». وليست كل الاتهامات التى تطارِد بها معاداة السامية سلالة الشعب اليهودى تقوم على أسس طيبة كهذه، فلابد طبعاً أن هناك أكثر من سبب لظاهرةٍ بمثل هذا التركيز والقوة الدائمة كظاهرة الكراهية الشائعة لليهود. ويمكن أن نستشف سلسلة كاملة من الأسباب، وبعضها مما لايحتاج إلى تفسير ينهض على اعتبارات واضحة، وبعضها الآخر يوجد على أعماق بعيدة، وينبثق من مصادر خفية قد نعتبرها دوافع مميزة[1].

وأكثر هذه الأسباب كذباً فى المجموعة الأولى هو **الاتهام الذى يقول بأن اليهود أجانب**، وهو كاذب طالما أن اليهود اليوم فى كثير من الأماكن التى يسيطر عليها العداء للسامية كانوا أقدم عناصر السكان، أو أنهم جاءوا قبل السكان الحاليين. وهذا ماحدث مثلا فى مدينة كولون التى وفد إليها اليهود مع الرومان قبل أن تستعمرها القبائل الألمانية. وهناك أسباب أقوى من ذلك للعداء للسامية، مثلا كوْن اليهود يعيشون فى الغالب كأقلية بين الشعوب الأخرى، طالما أن الإحساس بالتضامن بين الجماهير لكى يكون إحساساً كاملا يحتاج إلى كراهية لأقلية خارجية، ويستثير الضعف العددى للأقلية أن تضطهدها الأغلبية. وهناك مع ذلك **خاصتان** أخريان لليهود لايمكن اغتفارهما لهم، **الأولى** أنهم

١- كانت لمعاناة اليهود أسباب أخرى اقتصادية واجتماعية لم يذكرها فرويد ولم يتعرض لها بتاتا، وهو هنا يدرك مايمكن أن يقابل به تفسيره من معارضة، ولذلك يسبق المعارضة، ولكنه لايذكر الأسباب الأخرى. وقد تناولنا مسألة بولس واعتسافات فرويد وغيره فى كتابنا «الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية».(الحفنى)

يختلفون فى نواحٍ كثيرة عن «مُضيفيهم»، وهم ليسوا كذلك طالما أنهم ليسوا جنساً آسيوياً أجنبياً كما يقول أعداؤهم، ولكنهم يتكونون فى الأغلب من بقايا شعوب البحر الأبيض ويرثون ثقافتهم. ومع ذلك فهم مختلفون - ولو أن من الصعب أحياناً أن نحدد أوجه هذا الاختلاف - وخاصة اختلافهم عن الشعوب الشمالية. ولكن التعصب العنصرى يهوّل من أمر الاختلافات الصغيرة دون الاختلافات الجوهرية، وهو شئ نجده غريباً. **والخاصية الثانية** لها تأثير معترف به أكثر، وتقول إن اليهود يتحدون الاضطهاد، بل إن أقسى أنواع الاضطهاد لم تنجح فى إبادتهم، وهم يظهرون على العكس قُدرة على إدارة أعمالهم فى الحياة العملية، وحيثما تُفتح أمامهم المجالات فإنهم يُسهمون إسهامات لها قيمتها فى المدن التى يعيشون بين ظهرانيها[1].

وتكمن جذور **الدوافع العميقة للعداء للسامية** فى الأزمان التى عفى عليها من قديم، وهى دوافع **تنبع من اللاشعور**، وإنى لمستعد لسماع أن ماسأقوله سيبدد لأول وهلة شيئا لايصدقه العقل، وإنى لأجرؤ على أن أؤكد أن **الغيْرة التى استثارها اليهود لدى الشعوب الأخرى بإصرارهم على القول بأنهم المولود الأول المحبب لإله الأب**، لم تتغلب عليها هذه الشعوب الأخرى، كما لو أن هذه الشعوب قد صادقت على هذه الدعوى. وأكثر من ذلك فإن اليهود أكدّوا عزلتهم عن الآخرين بعادات على رأسها **عادة الختان** التى كان لها انطباع منفّر شديد. وربما كان تفسير هذا الانطباع أن الختان يُذكّر هذه الشعوب بفكرة الإخصاء المرهوبة وبأشياء ترجع إلى ماضيها البدائى الذى يسرهم أن ينسوه. وهناك أخيراً **أحدث الدوافع فى هذه السلسلة**، فلاينبغى أن ننسى أن كل الشعوب التى تتفوق الآن فى ممارسة العداء للسامية لم تصبح مسيحية إلا فى الأزمان الحديثة نسبياً، وأنها أُجبرت على اعتناقها فى بعض الأحيان بحد السيف، وربما جاز لنا أن نقول أن إيمانها جميعا «إيمان فاسد»، وأنها تحت قشرة المسيحية الرقيقة ظلت على إشراكها الهمجى كما كان أسلافها، ولم تتغلب بعد على حقدها على الديانة الجديدة التى فرضت عليها، وأنها أسقطت هذا الحقد على المصدر الذى أتت إليها منه المسيحية وسهّلت الحكاية التى ترويها الأناجيل عن الوقائع التى جرت أحداثها بين اليهود - والحقيقة أنها رواية لاتتحدث إلا عن اليهود- سهّلت هذا الإسقاط، والنتيجة أن كراهية اليهودية هى فى الصميم كراهية للمسيحية، ولايدُهشنا أن نجد أن

١- واضح النعرة العنصرية فى كلام فرويد. (الحفنى)

الترابط الوثيق بين الديانتين التوحيدتين قد وَجَد تعبيراً عدائياً قوياً عنها لكل من الديانتين فى الثورة الاشتراكية الوطنية الألمانية (النازية)[1].

✠ ✠ ✠

-٥-

مصاعب فى التطبيق

ربما أفلح الفصل السابق فى إقامة تشابه بين عمليات مرض العصاب وبين الأحداث الدينية، ومن ثم أفلح فى أن يشير إلى الأصل الذى ماكان يتوقعه أحد الذى تستقى منه الأحداث الدينية. وإننا لنجد أن هناك مسألتين تشكلان صعوبة فى نقل معنى الأحداث من مجال علم النفس الفردى حيث تجد فيه تفسيرها إلى مجال علم النفس الجماعى. وهاتان الصعوبتان تختلفان عن بعضهما البعض فى الطبيعة وفى الأهمية، وينبغى لنا الآن أن نناقشهما. والصعوبة الأولى أننا لم نناقش هنا حتى الآن إلاّحالة واحدة من الحالات التى يحفل بها علم دراسة ظواهر الأديان، وأن مناقشتها لاتلقى أى ضوء على الحالات الأخرى، وإنى لأجد أنى للأسف مضطر إلى التسليم بأنى لاأستطيع أن أناقش إلا حالة واحدة فقط كمثال لبقية الحالات، وأنى لاأمتلك المعرفة التى يتمتع بها الخبير، والتى تلزم لاستكمال هذا البحث. وربما كانت هذه المعرفة المحدودة هى مايسمح لى بأن أضيف بأنه يبدو لى أن قيام الديانة المحمدية كان تكراراً على نطاق ضيق للديانة اليهودية، وأن الديانة المحمدية ظهرت مقلدة للديانة اليهودية[2]. وهناك من الأسباب مايدعونا إلى الاعتقاد بأن النبى

١- هذا الكلام ليس علمياً، وإنما هو من قبيل الدعاية، ومقارنة يعقدها بين اليهودية والمسيحية، وإعلاء لليهودية على المسيحية؛ ثم استعداء المسيحية على النازية لأهداف سياسية. (الحفنى)

٢- يردد فرويد كلام الكثير من المستشرقين ويرد عليهم الأستاذ العقاد بأن التشابه بين الأديان المنزلة يعود إلى أن المصدر واحد وهو الله، ثم إن الإسلام يعترف باليهودية والنصرانية، وإن كان يخالفهما فى أشياء كثيرة. ولعلنا نلاحظ أن فرويد يبنى كتابه كله على التّوهم وهو يركّب الأحداث تركيباً غرضه النهائى هو إعلاء شأن اليهود والديانة اليهودية على سائر الأمم والديانات. وربما كان أعجب أحكامه تعسفاً هو قوله عن توقف التطور الداخلى للإسلام وأن الإسلام ينقصه العمق، وليس هذا إلا لأن مؤسس الإسلام لم يُقتل بينما قُتل مؤسس اليهودية فى زعمه. إذن قتل المؤسس هو سبب عمق اليهودية، ومع ذلك فنفس السبب لم يعمق المسيحية مع أنه يقر بقتل مؤسسها، ولم يعمّق ديانة أتون مع أنه يقر بمقتل أخناتون. شئ غريب وتحامل غريب ومنطق غريب !! والحقيقة أن مايسمى العداء للسامية هو رد فعل لعداء اليهود لغير اليهود، أو العداء السامى الذى اختص به اليهود غير الساميين !! يقول القرآن : قل آمنا بالله ومأأنزل علينا، ومأأنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، ومأأوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (آل عمران ٨٣). (الحفنى)

محمد كان يزمع فى الأصل اعتناق الديانة اليهودية، هو وكل شعبه. وأثمرت لدى العرب العودة إلى الإيمان بالأب الواحد البدائى الكبير تقدماً غير عادى فى الثقة بالنفس، ثقةً أدت بهم إلى إحراز نجاحات دنيوية عظيمة، ولكنها فى الواقع استنفدت نفسها فى هذه النجاحات. وكافأ الله شعبه الإسلامى المختار بأكثر مما كافأ به يهوا شعبه اليهودى المختار عندما اعتنق ديانته. ولكن التطور الداخلى للديانة الإسلامية الجديدة سرعان ماتوقف، وربما كان ذلك لأن العمق كان ينقصها، وهو العمق الذى تحلّت به الديانة اليهودية وكان نتيجة مقتل مؤسسها. ولذلك فإن ديانات الشرق التى تبدو فى ظاهرها وكأنها تقوم على العقل هى فى جوهرها عقائد، سلف تتوقف عند مرحلة مبكرة من عملية إعادة بناء الماضى.

وإذا كان من الصحيح أننا نجد أن المضمون الوحيد لديانة الشعوب البدائية التى تعيش فى عصرنا هو عبادة كائن أعلى، فتفسيرنا الوحيد لذلك هو أن تطور الدين قد أصابه التغضن، ومن هنا نعقد مقارنة بالحالات التى لاعدّ لها من أمراض العصاب الأثرية التى نعثر عليها فى الطب النفسى. ولسنا ندرك سبب عدم وجود مزيد من التطور هنا وكذلك هناك، وينبغى أن نقول أن الهبّات الفردية لهذه الشعوب هى المسئولة عن ذلك وعن الاتجاه الذى تسلكه نشاطاتها، وعن ظروفها الاجتماعية العامة. وبالإضافة إلى ذلك فإن الاكتفاء بتفسير ماهو موجود وعدم محاولة تفسير مالم يحدث قاعدة طيبة يُعمل بها فى التحليل النفسى.

والصعوبة الثانية فى نقل معنى الأحداث من مجال علم النفس الفردى إلى مجال علم النفس الجماعى صعوبة ذات دلالة أكبر، لأنها تقدم مشكلة جديدة ذات طبيعة أساسية. وينهض سؤال حول الشكل الذى يتخذه التراث الذى مايزال قائماً يفعل فعله فى حياة الشعوب. ولكن مثل هذا السؤال لاوجود له مع الأفراد، لأنه فى حالة الأفراد يسوى الأمر عن طريق وجود مخلّفات فى اللاشعور لذكرى الماضى. ولنعد إلى المَثَل الذى ضربناه من التاريخ، فلقد قلت إن الالتقاء والاتفاق اللذين حدثا فى قادش قاما على استمرار وجود تراث قوى يعيش فى ضمير الناس الذين عادوا من مصر. ولاتوجد مشكلة هنا، وقلت

مقترحاً أن مثل هذا التراث أبقى عليه التذكر الواعى بالنقل الشفاهى من الأسلاف على امتداد جيل أو جيلين فقط شاركا وكانا شهود عيان للأحداث موضوعنا. فهل بوسعنا أن نعتقد نفس الشئ بالنسبة للقرون اللاحقة - وهو أن التراث كان دائماً يقوم على معرفة كانت تنقل بطريقة عادية من السلف إلى الخلف؟ ولم نعرف من كان هؤلاء الأشخاص الذين اختزنوا هذه المعرفة ومرّروها من فم إلى فم، كما عرفنا فى الحالة الأولى. ويقول المؤرخ «سيللين» إن تراث مقتل موسى ظل قائماً بين الكهنة حتى قُيض له آخر الأمر أن يُدوّن، وعن طريقه مدوناً استطاع سيللين أن يحرزه. ومع ذلك فكان من الممكن أن يظل مجهولاً من كثيرين، فهو لم يكن معرفة يمكن أن يحيط بها الجميع علماً. فهل هذا الشكل من النقل بكاف كى يفسر ماكان له من أثر؟ وهل لنا أن نثق فى معرفة كهذه قاصرة على قلة من الناس، وهل تكون لها قوة الاستحواذ على خيال الجماهير استحواذاً أبدياً، عندما يعلمون بها؟ ويبدو بالأحرى أن هناك شيئاً فى جماهير الشعب الجاهلة كذلك يشبه هذه المعرفة التى تحظى بها القلة، وهذا الشئ يتقدم ليلاقيها حالما تفصح القلة عنه.

ويصعب أكثر أن نصل إلى خاتمة عندما نتحول إلى الحالة المشابهة فى الأزمان البدائية، ففى خلال آلاف القرون نُسى بالتأكيد أنه كان هناك أب بدائى له الصفات التى ذكرتُها، ونُسى المصير الذى لاقاه. وليس بوسعنا أن ندعى وجود رواية شفاهية كالتى افترضناها عن موسى، ومن ثم ففى أى معنى يمكن أن تكون المسألة مسألة رواية تراث؟ وفى أى شكل يمكن أن توجد هذه الرواية؟

ولكى أساعد القرّاء الذين لايرغبون أو ليس لديهم الاستعداد للتوغل فى المسائل السيكولوجية المعقدة، سأعرض منذ البداية نتيجة هذا البحث الحالى. وهو أنى أعتقد أن الاتفاق بين الفرد والجماعة تام تقريباً فى هذه النقطة، فالجماهير تستبقى كذلك خاطراً من الماضى فى الآثار غير الواعية للذاكرة. وتبدو حالة الفرد واضحة جداً، فلقد استبقى أثر الأحداث المبكرة فى الذاكرة، ولكنه استبقاه فى حالة سيكولوجية خاصة. وقد نقول إن الفرد كان يعلم بهذه الآثار دائماً بالمعنى الذى نعلم به المادة المكبوتة. ولقد كوّنا تصورات معينة - ويمكن إثباتها بسهولة بالتحليل - عن الطريقة التى يصبح بها الشئ منسياً، وعن الطريقة التى يمكن أن يبرز بها إلى الضوء من جديد. والمادة المكبوتة لاتتلاشى ولكنها

«تكبت» فقط، وتوجد آثارها فى الذاكرة بشدتها الأصلية، ولكنها توجد معزولة بسبب وجود نشاط ذهنى يعمل على عزلها. وهى لاتتصل بالعمليات الفكرية الأخرى بل تكون لاشعورية وبعيدة عن تناول الشعور. وقد يحدث أن تفلت أجزاء معينة من المادة المكبوتة من هذه العملية وتظل فى تناول الذاكرة وتعاود الظهور أحياناً فى الشعور، ولكنها حتى فى ذلك تظل معزولة وتبقى جسما غريباً لارابط بينه وبين بقية العقل. نقول إن هذا قد يحدث، ولكن ليس شرطاً أن يحدث باستمرار. وقد يكون الكبت كذلك كبتاً تاماً، وهذه هى الحالة التى أقترح مناقشتها.

وتستبقى هذه المادة المكبوتة دافعها إلى التغلغل فى الشعور، وهى تصل إلى هدفها عندما تتوافر لها ثلاثة شروط :

١- عندما تقل قوة النشاط الذهنى الذى يعمل على إبقائها معزولة، ويتسبب فى ذلك المرض الذى يؤثر فى الأنا نفسه، أو يؤثر فيه من خلال توزيع النشاط الذهنى توزيعاً مختلفاً فى الأنا، كما يحدث بانتظام خلال النوم.

٢- عندما تقوى هذه الغرائز المرتبطة بالمادة المكبوتة، وخير مثل لذلك العمليات التى تحدث خلال فترة البلوغ.

٣- حيثما تسببت الأحداث الحديثة فى إنتاج انطباعات أو تجارب تشبه كثيراً المادة المكبوتة وتكون لها القوة على إيقاظها.

ومن ثم تقوى المادة الحديثة بالطاقة الكامنة للمادة المكبوتة، ويكون للمادة المكبوتة أثرها من خلف المادة الحديثة وبمساعدتها.

ولاتنجح المادة التى كُبتت فى أى من الحالات الثلاثة فى الوصول إلى الشعور دون أن يعوقها عائق أو دون تغيير، وإنما الذى يحدث دائماً أن التشويه يلحق بها، مما يشهد على وجود مقاومة لم تهزم تماماً، وتتبع من انصراف النشاط الذهنى إلى عزل المادة المكبوتة، أو تشهد بالأحرى تأثير معدل لتجربة حديثة، أو على وجود الاثنين معاً.

ولقد استخدمتُ، كعلامة مميزة ومَعْلَم، الاختلاف بين أن تكون العملية النفسية شعورية أو لاشعورية. وتوجد المادة المكبوتة لاشعورية. ولو قبلنا هذه الجملة - أى إذا كان الاختلاف بين صفة الشعور وصفة اللاشعور يتماثل مع الاختلاف بين «ماهو من صفات

الأنا» وبين «المكبوت» – لكان الأمر مجرد تبسيط للأمور. والشئ الجديد والمثير أن حياتنا العقلية تختزن أمثال هذه المادة اللاشعورية المعزولة. والحقيقة أن الأمور أعقد من ذلك، لأن الصواب أن كل ماهو مكبوت لاشعورى، ولكن ليس من الصواب أن كل ماينتمى إلى الأنا شعورى. ولقد أدركنا أن الشعور صفة غير دائمة ولاتتواجد مع العملية النفسية إلا مؤقتاً. ولذلك فإننا ينبغى من أجل أهداف بحثنا أن نستبدل تعبير «الشعورى» بتعبير «له القدرة على أن يكون شعورياً». ونحن نسمى هذه الصفة «تحت الشعور»، وحينئذ نستطيع أن نقول بطريقة أصح : أن الأنا أساسا تحت شعورى (أى أن الشعور مفترض فيه) ولكن أجزاء منه لاشعورية.

وهذه الجملة الأخيرة تعلمنا أن الصفات التى ذكرناها حتى الآن لاتكفى لتنير لنا الطريق فى ظلام الحياة العقلية. وينبغى أن نضيف إلى ماسبق تمييزاً جديداً، ليس نوعياً ولكنه طبوغرافى (مكانى) وتوليدى فى الوقت نفسه – وهو مايعطيه قيمة خاصة. ونحن الآن نميز فى حياتنا النفسية – التى نراها بوصفها جهازاً يتركب من عدد من السلطات والنواحى أو الجهات – بين منطقة نطلق عليها اصطلاح «الأنا الواقعى»، وبين منطقة أخرى نسميها «الهو». ومنطقة «الهو» أقدم زمنياً من الأنا، ويتولد الأنا منها ويتطور بتأثير العالم الخارجى كما تنمو الحديقة وتتطور حول شجيرة. وغرائزنا الأولية تبدأ فى منطقة الهو، وكل العمليات التى تتم فى منطقة الهو عمليات لاشعورية. وتتواصل الأنا، كما ذكرت، مع منطقة تحت الشعور، ومن طبيعة أجزاء منها أن تظل لاشعورية. وتخضع العمليات النفسية فى «الهو» لقوانين مختلفة كل الاختلاف، وتتباين وجهاتها والتأثيرات التى تتبادلها فيما بينها عن مثيلاتها التى تسود الأنا. واكتشاف هذه الاختلافات هو الذى هدانا إلى هذا الإدراك الجديد، وهو الذى يدعمه.

وينبغى النظر إلى المادة المكبوتة باعتبارها شيئاً ينتمى إلى الهو وينصاع لميكانيزماته. وهى لاتختلف عنه إلا فى أصل تكوينها. وهذا الاختلاف يبدأ فى المرحلة الأولى بينما الأنا يتخلق عن الهو، ثم يستولى الأنا على جزء من الهو ويرفعه إلى مستوى تحت الشعور، ولكن الأجزاء الأخرى تظل بمنأى عن التأثير وتظل فى الهو بوصفها «اللاشعور» الخالص. ومع ذلك فإن بعض الحيل الدفاعية تتمكن من عزل بعض الخواطر والعمليات النفسية خلال

تطور الأنا، وتسلبها صفة تحت الشعور، ومن ثم تسقط من جديد إلى منطقة الهو وتستحيل أجزاء أصلية منه. وإذن فهذه هى «المادة المكبوتة» فى الهو. أما فيما يتعلق بالمرور بين هاتين المنطقتين من الجهاز النفسى فإننا نفترض أنه من ناحية يمكن رفع العمليات اللاشعورية فى الهو إلى مستوى تحت الشعور ويمكن إدماجها فى الأنا، ومن ناحية أخرى يمكن للمادة اللاشعورية فى الأنا أن تسير فى الاتجاه المضاد وأن تعود إلى منطقة الهو. وأمّا أن منطقة أخرى تتحدد فيما بعد تخومها فى الأنا، فهذا أمر لايعنينا هنا.

وقد يبدو كل ذلك بعيداً عن أن يكون بسيطاً، ولكننا لو ألفنا الصورة التى لم نعتدها للتكوين الطبوغرافى للجهاز النفسى، فلن تكون هناك صعوبات معينة. وسأضيف هنا أن طبوغرافية النفس التى طورت صورتها هنا ليس لها بوجه عام أية علاقة بالتشريح المخى، ولكنها تصطدم به عند نقطة واحدة. ووجه عدم الرضا عن هذا التصور - الذى ألاحظه بوضوح كما يلاحظه غيرى - له جذوره فى جهلنا المطبق بالطبيعة الدينامية للعمليات النفسية. ونحن ندرك أن مايميز الفكرة الشعورية عن الفكرة تحت الشعورية، وهذه عن الفكرة اللاشعورية، لايمكن أن يكون أى شئ إلاتعديلاً أو هو ربما كذلك توزيع آخر للطاقة النفسية. ونحن نتحدث عن الشحن العاطفى وفرط الشحن ولاشئ بعد ذلك لأنه تنقصنا كل المعلومات اللازمة بل وتعوزنا البداية التى يمكن أن نبنى عليها الفروض الصالحة. وبوسعنا على الأقل أن نقول عن ظاهرة الشعور أنها ظاهرة تتشعب أساساً إلى الإدراك، وكل إدراك يتولد عن مثيرات مؤلمة لمسية أو سمعية أو مرئية هو فى الغالب إدراك شعورى. والعمليات الفكرية، ومايمكن أن يشبهها فى الهو، عمليات لاشعورية فى جوهرها، وهى تنتقل إلى الشعور بحكم ارتباطها عن طريق وظيفة الكلام بالآثار التى يخلّفها الإدراك بواسطة اللمس والسمع فى الذاكرة. أما فى الحيوانات التى لاتعرف الكلام فإن هذه العلاقات لابد أن تكون أبسط من ذلك.

والانطباعات التى تركتها الخبرات الأنوية المبكرة، والتى بدأنا منها بحثنا، إما أنها لاتُترجَم إلى ماتحت الشعور، وإما أنها توجه من جديد وبسرعة إلى الهو بواسطة عملية الكبت، ويصبح مايتبقى منها فى الذاكرة لاشعوريا ويعمل عمله وهو فى الهو. ونحن نعتقد أن بوسعنا أن نتتبع مصيرها من بعد ذلك بوضوح، طالما أنها فى نطاق الخبرات

الشخصية. وتتعقد الأمور من جديد عندما ندرك أن من المحتمل أن يوجد فى الحياة النفسية للفرد، ليس فقط ماخبره شخصياً، ولكن يوجد بالإضافة إليه ماجلبه معه منذ الميلاد : نتف ترجع إلى أصول خاصة بنشأته كنوع، أى ترجع إلى تراث قديم بائد. وحينئذ نتساءل : ماالذى يتكون منه هذا الميراث، وماالذى يحويه، وماهى الشواهد التى تدل عليه؟

والجواب الذى يتبادر لأول وهلة وهو الجواب المؤكد هو أن هذا الميراث يتكون من اتجاهات غريزية معينة مثل التى لدى كل الكائنات الحية، أى يتكون من القدرة والميل عند الكائن الحى إلى اتباع اتجاه معين فى تطوره، وأن ينفعل بطريقة خاصة أمام بعض المثيرات والمنبهات والتأثيرات. ومادامت التجربة تقول بأن الأفراد يختلفون فى هذا الصدد، فإن ميراثنا القديم يشتمل على هذه الاختلافات، فهى تمثل الشئ المعترف به والذى يقال له العنصر البنيوى فى الفرد. ومادام كل البشر يدخلون نفس التجارب، على الأقل فى سنواتهم الأولى، فإنهم ينفعلون تجاه هذه التجارب بنفس الطريقة. ولهذا قام الشك الذى يجعلنا نتساءل ألا يجب النظر إلى ردود الفعل هذه بكل ماتتضمنه من اختلافات بين الأفراد على أنها جزء من الميراث القديم. وهذا الشك ينبغى رفضه، فهذا التشابه لايثرى معرفتنا بالميراث القديم.

وأثناء ذلك أثمر البحث التحليلى عدداً من النتائج تعطينا غذاء للفكر، فأول كل شئ هناك عالمية رمزية للكلام. وهناك الاستبدال الرمزى لموضوع بآخر – ونفس الشئ ينطبق على الأفعال – وهو مايتقنه أطفالنا ويبدو طبيعيا جداً معهم. ولانستطيع أن نتبع الطريقة التى تعلموا بها هذه الرمزية، وينبغى أن نعترف بأن تعلمها مستحيل فى كثير من الحالات، فهى معرفة طبيعية ينساها الراشد من بعد، وهو يستخدم فى الواقع نفس الرمزية فى أحلامه، ولكنه لايفهم هذه الأحلام مالم يفسرها له المحلل النفسى، وهو حتى عندئذ ينفر أن يصدق الترجمة. وعندما يستخدم أحد الجمل الشائعة فى الكلام التى تتبلور فيها هذه الرمزية فإنه يجد نفسه مضطراً إلى التصريح بأن معناها الحقيقى أفلت منه. بل إن الرمزية تتجاهل الاختلاف فى اللغات، ومن المحتمل أن البحث فى هذه المسألة سيدلنا على أن الرمزية موجودة فى كل اللغات وواحدة مع كل الشعوب. والرمزية بالتأكيد ميراث قديم منذ عصر بداية تطور الكلام، ولو أننا قد نحاول أن نجد لها تفسيراً آخر. فلربما جاز لنا أن نقول إن الرمزية عبارة عن روابط فكرية تربط الأفكار ببعضها البعض، هذه الأفكار

التى تكونت خلال مرحلة التطور التاريخى للكلام، والتى تتكرر بالضرورة فى كل مرة يمر الفرد بمثل هذا التطور. وإذن تكون الرمزية عبارة عن حالة يرث فيها الفرد اتجاهاً فكرياً مثلما يرث فى حالة أخرى الاتجاه الغريزى. ولكن هذا البحث لن يسهم للمرة الثانية بإضافة شئ جديد للمشكلة التى نعالجها.

ومع ذلك فقد دفع البحث التحليلى بأشياء أخرى إلى دائرة الضوء، وهى تزيد فى معناها عن أى شئ ناقشناه حتى الآن. ونحن عندما ندرس ردود الفعل التى تحدث نتيجة للصدمات المبكرة فإننا كثيراً مانجد لدهشتنا أنها لاتقتصر بشكل تام على ماجرّبه الفرد، ولكنها تنحرف عن تجربته بطريقة تتعقد أكثر مع كونها ردود فعل لأحداث وراثية ولايمكن تفسيرها بشكل عام إلا عن طريق مثل هذا التأثير. ويحفل سلوك الطفل العصابى إزاء أبويه عندما يكون تحت تأثير عقدة أوديب وعقدة الخصاء بردود الفعل هذه، وهو مايبدو غير معقول فى الفرد ولايمكن فهمه إلا باعتبار ردود الفعل هذه مسائل خاصة بالنشأة النوعية للإنسان بالنسبة لخبرات الأجيال الأولى. وقد يستحق الأمر جداً أن أجمع وأنشر المادة التى أسّستُ ملاحظاتى عليها. والواقع أنها تبدو لى مقنعة جداً حتى لأغامر أكثر وأؤكد من جديد أن الميراث البائد للبشرية لايتضمن فقط الميول والاتجاهات، ولكنه يتضمن كذلك محتويات أفكارية وآثار محفورة فى الذاكرة لخبرات أجيال سابقة. وبهذه الطريقة يزيد مدى ومعنى الميراث البائد للبشرية زيادة ملحوظة.

وبمراجعة ماوصلتُ إليه من أفكار أجد أنى ينبغى أن أعترف أنى قد ناقشت المسألة كما لو كان لامجال هناك لإنكار وجود ميراث الذكريات - آثار لما خَبَره آباؤنا وَصلَتْنَا عن طريق غير طريق الاتصال المباشر والتعلم بواسطة القدوة. وعندما أتحدث عن تراث قديم مايزال يعيش فى شعب من الشعوب، وعن تشكيل الشخصية القومية، فإنما أقصد هذا الضرب من التراث الموروث، وليس التراث الذى ينتقل إلينا شفوياً، فهذا النوع من التراث هو الذى أقصده. أو أنى على الأقل لم أميّز بين الاثنين، ولم أكن قد فهمت تماماً أهمية الخطوة الجريئة التى خطوتها بإهمالى لهذا الاختلاف. ويشتد فعلاً تعقد هذا الوضع للأمور بالنسبه لاتجاهات علم البيولوجيا الذى يرفض فكرة انتقال الصفات المكتسبة إلى الخَلَف. وإنى لأعترف بكل تواضع أنى رغم ذلك لاأتصور استمرار التطور البيولوجى دون أن أُدخل

هذا العنصر فى الحسبان .. والواقع أن الحالتين ليستا متشابهتين تماماً، فالمسألة التى يصعب فهمها فى الحالة الأولى هى مسألة الصفات المكتسبة، وهى فى الحالة الثانية الآثار المختلفة فى الذاكرة للتعبيرات الخارجية، وهى شئ يكاد يكون مادياً ملموساً. وربما لم يكن فى استطاعتنا مع ذلك أن نتخيل أساساً إحداهما بدون الأخرى، فإذا كنا نقبل الوجود المستمر لمثل هذه الآثار المتخلفة فى ميراثنا البائد، فإننا حينئذ نكون قد رتقنا الهوة بين علم النفس الفردى وعلم النفس الجماعى، وبوسعنا أن نعامل الشعوب كما نعامل الفرد العصابى. ومع أننا قد نعترف بأننا لانملك حتى الآن أى دليل على وجود آثار متخلفة فى الذاكرة لميراثنا البائد أقوى من هذه البقايا فى الذاكرة التى يستدعيها التحليل النفسى، وهى بقايا تثير احتمال أنها مستمدة من أصول ترجع إلى تنشئة النوع، فإن هذا الدليل يبدو لى مقنعاً بدرجة تكفى لافتراض مثل هذا الذى افترضناه. فإذا كانت الأوضاع على غير ذلك فإننا سنكون عندئذ غير قادرين على التقدم خطوة أخرى فى طريقنا، سواء فى مجال التحليل النفسى أو فى مجال علم النفس الجماعى. وإذن فوجهة نظرنا شئ يتسم بالجرأة، ولكنه شئ لاسبيل إلى تجنبه.

ونحن فى افتراضنا هذا الذى افترضناه نفعل شيئاً آخر وهو تقليل اتساع هوة الكبرياء التى قامت فى الأزمان السابقة بين الإنسان والحيوان. فإذا كان مايسمى بغرائز الحيوانات – التى تتيح لها منذ البدايات الأولى أن تسلك فى ظروفها المعيشية الجديدة كما لو كانت غرائز قديمة قد ثبتت منذ أمد طويل – إذا كانت هذه الحياة الغريزية للحيوانات تسهم إطلاقاً بأى تفسير، فلايمكن أن يكون هذا التفسير سوى : **أنها تحمل فى وجودها الجديد تجربة النوع الذى تنتمى إليه، أى أنها استبقت فى عقولها ذكريات لما عاناه أسلافها، ولايمكن أن تكون الأمور فى الحيوان الإنسانى مختلفة فى جوهرها عن ذلك، فميراثه القديم، مع أنه مختلف فى المدى والصفات، يشبه غرائز الحيوانات.**

وبعد هذه الاعتبارات لاأحس بأى تأنيب عندما أقول إن البشر عرفوا دائماً – بهذه الطريقة الخاصة – أنه كان لهم فى يوم من الأيام أب **أول وأنهم قتلوه.**

وينبغى هنا أن نجيب على سؤالين آخرين، الأول تحت أية ظروف تدخل مثل هذه الذاكرة إلى الميراث القديم؟ والثانى فى أية ظروف يمكن أن تنشط - بمعنى أن تنفذ من حالتها اللاشعورية فى الهو إلى الشعور، ولو فى شكل مغاير ومشوه؟ والجواب على السؤال الأول سهل تكوينه : إنها تحدث عندما تكون الخبرة مهمة بقدر كاف، أو عندما تتكرر بكثرة كافية، أو فى الحالتين معاً. ومع قتل الأب تتحقق الحالتان. وإنى لأشير من ناحية السؤال الثانى : أنه قد يوجد عدد من المؤثرات التى لاحاجة أبداً إلى معرفتها، والطريقة التلقائية ممكنة كذلك تشبها بما يحدث فى بعض الأمراض العصابية. ومع ذلك فاستيقاظ أثر الذاكرة من خلال تكرار حقيقى حديث للحادثة له بالتأكيد أهمية حاسمة. ولقد كان قتل موسى تكراراً له أهميته، وفيما بعد قُتل المسيح قتلاً يفترض فيه أنه قانونى[1]، حتى أن هاتين الحادثتين تتحركان إلى المقدمة كعوامل عليّة. ويبدو أن تكوين التوحيد ماكان من الممكن أن يكون دون هذه الأحداث. ولعلنا نتذكر قول الشاعر «كل ماقدر له أن يعيش للأبد لابد أن يقع أولاً فى حقبة مامن الحياة (شيلر: آلهة اليونان). ولسوف أنهى مقالى هذا بملحوظة تصلح أساسا سيكولوجياً للنقاش، فالتراث الذى يقوم على الاتصال الشفاهى لايمكن أن ينتج السمة الحوازية التى للظواهر الدينية، فهذا التراث يمكن أن نسمعه ونقيّمه وحتى أن نرفضه كالأخبار التى تصلنا من خارج، وقد لاينسجم مع مقتضيات المنطق. ولابد أن هذا التراث قد عانى أولا من الكبت بمعنى أنه قد أصبح أولاً لاشعوريا قبل أن يكون له آثار منتجة ويعمل عمله الضخم ويشد إليه الجماهير بسحره فيُواجَه منهم بالدهشة ولا يتفهمونه وهو ماحدث مع التراث الدينى. ويميل بنا ذلك إلى الاعتقاد بأن ماحدث قد حدث كما تصورته أو قريباً من ذلك.

✠ ✠ ✠

١- بتاريخ ٩ يونيو نظرت أمام المحاكم الإسرائيلية قضية حاول فيها أحد المحامين اليهود إعادة محاكمة المسيح، وقال إن الذى حاكمه من قبل كان السنهدرين وهى محكمة يهودية، ولكن القاضى ذكر أن قضاة المسيح كانوا من الرومان، وأصر المحامى على أن السنهدرين هى التى حاكمته، وهى أقدم محكمة يهودية، ولايمكن أن يكون أعضاؤها إلا من اليهود. وفرويد ليس أكثر من يهودى يعتقد بأن قتل المسيح كان بناءً على محاكمة عادلة، وإيمانه هنا ليس أكثر من إيمان بالأفكار الشائعة بين اليهود، أفكار عامية اعتقد بها دون تمحيص ومناقشة .. فرويد هنا أفكاره عامية خالصة. (الحفنى)